العلمانيون والإسلام

محمد قطب

دار الشروق

العلمانيون والإسلام

الطبعة الاولـى
١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م

© دارالشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣
فـاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
فـاكس : ٨١٧٥٥٥ ـ تلكس : SHROK 20175 LE

محمّد قطب

العلمانيّون والإسلام

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ »

صدق الله العظيم

مقدمة

يقوم العلمانيون منذ فترة بحملة واسعة ضد تحكيم الشريعة الإسلامية ، وضد الإسلاميين الذين يطالبون بتحكيمها ، ويحشدون جهودهم فى ذلك كأنما يدرءون خطرًا داهمًا يوشك أن يدهمهم ، ويلوّحون فى حملتهم بالديمقراطية بديلا من الإسلام ويرددون كثيرا فى كلامهم كلمة « التعددية » وكلمة « الآخر » و « الحرية السياسية » و «تداول الحكم » .

ويعجب الإنسان من ذلك حين يعلم أن كثيرا من أولئك العلمانيين كانوا شيوعيين يوم أن كانت الشيوعية ذات سطوة وسلطان . فلما انهارت الشيوعية بالسرعة المذهلة التى انهارت بها ، لبس أولئك العلمانيون ثياب « الديمقراطية » وصاروا ينادون بها كأنهم من دعاتها منذ نعومة أظفارهم ! وقد كانوا فى فترة اعتناقهم الشيوعية ينددون بالتعددية الحزبية ويرون فيها الفساد كله . فلما سقطت الشيوعية واحتاجوا إلى تغطية أنفسهم لبسوا ذات الرداء الذى كانوا يلعنونه بالأمس ويندددون به !

ويعجب الإنسان كذلك حين يراهم يعارضون تطبيق الشريعة بدعوى أن تطبيقها لايتيح الحرية للأمة لكى تمارس « حقوقها السياسية » ولايتيح « للمعارضة » أن تعبر عن مواقفها ، ولايحترم « الآخر » . . بينما كانوا بالأمس من أشد أعوان الحكم العسكرى الذى يكتم أنفاس الأمة ، ويسحق المعارضة سحقًا لاهوادة فيه ، ويفرض رأيه على الأمة فرضًا على طريقة فرعون الذى كان يقول : ﴿ ماأريكم إلا ما أرى ، وماأهديكم إلا سبيل الرشاد ! ﴾ (١) ويجعل فكرة « تداول الحكم » جريمة منكرة لاتخطر إلا فى بال الخونة المارقين ! ويملأ السجون والمعتقلات بألوف من الرجال والنساء والشباب والشيوخ ، ويعذبهم بما لا مثيل له فى التاريخ كله إلا فى محاكم التفتيش !

---

(١) سورة غافر [٢٩] .

وربما يزول العجب ـ أو بعضه على الأقل ـ إذا أدرك الإنسان أن الذى يحرك العلمانيين أساسًا هو كراهيتهم للشريعة الإسلامية ونفورهم من تطبيقها . ومن ثم يتخذون مواقفهم فى الموقع الذى يهاجم الإسلام والإسلاميين ، بصرف النظر عن طبيعة ذلك الموقع وحقيقة أفكاره . . ولايجدون فى أنفسهم حرجا أن يغيروا مواقعهم من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، ماداموا فى هذا الموقع أو ذاك يدخلون فى زمرة قومٍ أعداءٍ للإسلام والإسلاميين ، ويشاركونهم فى مهاجمة الإسلام والإسلاميين !

ولكننا نضرب صفحًا عن هذا كله ، وندخل مع العلمانيين فى حوار هادئً جهد الطاقة ، نريده أن يكون علميًا بحتًا وموضوعيًا بحتًا ، وأن نصل منه معًا إلى حقائق علمية وموضوعية تكشف الغبش الذى غشّى على كثير من الندوات التى قامت فى الفترة الأخيرة بين العلمانيين والإسلاميين ، ولم تصل إلى شىء فى النهاية ، لأنها كانت أقرب إلى الصراع الفكرى منها إلى البحث الموضوعى ، وكان الوقت المخصص لكل متكلم دقائق معدودة لاتتسع لبحث حقيقى ، وقصاراها أن تعرض وجهة نظر سريعة فى جزئية من جزئيات الموضوع .

وسنفترض من أجل هذا الحوار الهادئ جهد الطاقة أن الناس جميعا مخلصون ، وأنهم يريدون الحق ويسعون إلى الخير على الرغم من اختلاف وجهات نظرهم ، ثم نبحث معًا بحثا موضوعيا فى الدليل الذى يهدى إلى الصواب ، فإذا وجدناه التزمنا به ، ولم نحِدْ عنه ، متمثلين فى هذا الحوار بالأدب الذى وجه الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتبعه مع مخالفيه ، مع ثقته عليه الصلاة والسلام أنه على الحق ، إذ وجهه أن يقول لهم : ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو فى ضلال مبين﴾ (١) ومتمثلين قوله تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين (٢) ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات ـ بغيا بينهم ـ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ (٣) .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واهدنا بفضلك ورحمتك إلى سواء السبيل .

محمد قطب

---

(١) سورة سبأ [٢٤] .

(٢) أى حين اختلف الناس ولم يعودوا أمة واحدة على الحق كما كانوا فى مبدإ الأمر .

(٣) سورة البقرة [٢١٣] .

أوربا وتجربتها مع الدين

كانت تجربة أوربا مع « الدين » تجربة بئيسة إلى أقصى حد . .

كان الدين بالنسبة إليها ظلاما وجهلا واستبدادًا وغلظة وانصرافًا عن عمارة الأرض ﴿ ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم . . . ﴾[1] .

ووقر فى حس أوربا من خلال تجربتها الخاصة أن هذا هو « الدين » . .

ولذلك نفرت منه ، ثم هاجمته وأبعدته عن واقع الحياة ، وحبسته فى نطاق ضيق فى ضمائر الناس ، إن بقى للناس ضمائر بعد أن أبعدوا عن الدين !

وأوربا فى هذا معذورة من ناحية ، ولكنها ـ من ناحية أخرى ـ غير معذورة .

معذورة فى النفور من « ذلك الدين » والسعى إلى تقليص نفوذه ونزع سلطانه وحبسه فى أضيق نطاق ممكن . . . بل نبذه والخروج عليه جهرة . . ولكنها غير معذورة فى أن يكون هذا موقفها من « الدين » بعامة ، الصحيح منه وغير الصحيح !

* * *

لم تعرف أوربا دين الله الحقيقى الذى أنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام ، إنما عرفت صورة محرفة منه ، هى التى أذاعها بولس « رسول الأمم » ، ونشرها فى ربوع الأرض ، وبخاصة فى أوربا .

يقول المؤرخ البريطانى « ويلز » :

« وظهر للوقت معلم آخر عظيم ، يعده كثير من الثقاة العصريين المؤسس الحقيقى للمسيحية[2] ، وهو شاول الطرسوسى أو بولس . . والراجح أنه كان يهودى

---

(١) سورة الحديد [٢٧] .

(٢) أى للدين الذى عرفته أوربا .

المولد ، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك[1] ، ولامراء فى أنه تعلم على أساتذة من اليهود ، بيد أنه كان متبحرًا فى لاهوتيات الإسكندرية الهيلينية . . وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفى للمدارس الهلنستية [2] ، وبأساليب الرواقيين [3]، كان صاحب نظرية دينية ومعلمًا يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصرى بزمن طويل . . ومن الراجح جدا أنه تأثر بالمثرائية ، [4]إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية . ويتضح لكل من يقرأ رسائله المتنوعة جنبًا إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعا بفكرة لاتظهر قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعليم ، ألا وهى فكرة الشخص الضحية الذى يقدم قربانا لله ، كفارة عن الخطيئة [5] . فما بشر به يسوع كان ميلادا جديدا للروح الإنسانية . أما ماعلمه بولس فهو الديانة القديمة ، ديانة الكاهن والمذبح ، وسفك الدماء لاسترضاء الإله » [6].

ويقول أيضا :

« وفى أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أى التداخل والمزج بين الآلهة والعقائد المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة المثرائية التى تكاد تضارعها فى سعة انتشارها بين سواد الشعب ، ونحلة سيرابيس إيزيس حورس . .

. . على أن ما أسهمت به نحلة الإسكندرية فى الفكر المسيحى والطقوس المسيحية كان أعظم قدرًا أو يكاد . . إذ كان طبيعيا أن يجد المسيحيون فى شخصية حورس (الذى كان ابنا لسيرابيس وهو سيرابيس فى نفس الوقت) شبيها مرشدًا لهم فيما يبذلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا . . » [7].

---

(١) كما ينكر بعض الكتاب اليهود شخصية عبد الله بن سبأ الموازية فى عملها لشخصية بولس ، فهذا دخل النصرانية ليفسدها من داخلها ، وذاك دخل الإسلام ليحاول إفساده من الداخل .

(٢) مدارس الفلسفة الإغريقية وخاصة مدرسة الإسكندرية .

(٣) مدرسة فلسفية أسسها الفيلسوف زينون مبنية على الزهد فى متاع الحياة الدنيا وعدم المبالاة بلذائذ الحس وآلامه .

(٤) ديانة فارسية قديمة (عبادة مثرا إله النور)

(٥) أى القربان البشرى .

(٦) كتاب « معالم تاريخ الإنسانية » ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، ج ٣ . ص ٧٠٥ .

(٧) المرجع السابق : ج ٣ ص ٧٠٨ ـ ص ٧٠٩ .

وتتضح من شهادة « ويلز » عدة أمور :

١ ـ أن الدين الذى نشره بولس ليس هو الدين الذى جاء به المسيح عليه السلام .

٢ ـ أن بولس قد مزج الدين الذى جاء به المسيح عليه السلام بالوثنيات القائمة يومئذ وخاصة الميثرائية التى أتى بها من فارس والهلنستية التى جاء بها من الإغريق والتثليث الذى جاء به من الديانة المصرية القديمة .

٣ ـ أن أهم ما كان فى الدين الذى جاء به المسيح هو « الميلاد الجديد للإنسان » وهذه سمة الرسالات السماوية جميعا ، التى تتنزل لتخليص البشر من أوهامهم الوثنية وانحرافاتهم ، وتقدم العقيدة الصحيحة لهم ، فتمنحهم ميلادًا جديدًا ينعتقون فيه من أغلال الوهم ، وعبودية بعضهم لبعض ، ويرتفعون به إلى الوضع اللائق بهم : عباداً لله وحده ، متحررين من كل عبودية زائفة لغير الله . . وأن هذا « الميلاد الجديد للإنسان » هو الذى طمسته ديانة بولس ، فأعادت الناس إلى « الديانة القديمة » ديانة الكاهن والمذبح . . أى الديانات الوثنية التى كانت قائمة قبل الميلاد الجديد . .

ويقول برنتن :

« إن المسيحية الظافرة فى مجمع نيقية ـ وهى العقيدة الرسمية فى أعظم إمبراطورية فى العالم ـ مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين فى الجليل (١) . ولو أن المرء اعتبر العهد الجديد التعبير النهائى عن العقيدة المسيحية لخرج من ذلك قطعاً لا بأن مسيحية القرن الرابع (٢) تختلف عن المسيحية الأولى فحسب ، بل بأن مسيحية القرن الرابع لم تكن مسيحية بتاتًا » (٣) .

وهى شهادة واضحة لاتحتاج إلى تعليق .

ويقول رينان الفليسوف الفرنسى :

« إنه ينبغى لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقى كما كان يفهمه هو أن نبحث فى تلك التفاسير والشروح الكاذبة التى شوهت وجه التعليم المسيحى حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام . ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذى لم يفهم تعليم المسيح بل حمله على محمل آخر ، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين وتعاليم العهد

---

(١) أى المسيحية الأولى المنزلة من عند الله كما جاء فى كلام الكاتب فى السطور التالية .

(٢) أى المسيحية التى عرفتها أوربا واعتنقتها .

(٣) أفكار ورجال تأليف جرين برنتن ترجمة محمود محمود ص ٢٠٧ من الترجمة العربية .

القديم[1]. وبولس كما لايخفى كان رسولا للأمم ، أو رسول الجدال والمنازعات الدينية وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية كالختان وغيره ، فأدخل أمياله هذه على الدين المسيحى فأفسده . ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس . وأما تعليم المسيح الأصلى الحقيقى فخسر صفته الإلهية الكمالية . . . وإن أولئك الشراح والمفسرين يدعون المسيح إلها دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون فى دعواهم على أقوال وردت فى خمسة أسفار . . مع أن تلك الأقوال لاتدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله » [2].

ويتضح من شهادة رينان :

١ ـ أن بولس كان المفسد الأول والأكبر لتعاليم المسيح عليه السلام .

٢ ـ أنه ألقى على الدين الجديد من عند نفسه ما لم يكن فى الدين المنزل من عند الله .

٣ ـ أنه بعمل بولس وغيره من الشراح والمفسرين فقد الدين المنزل من عند الله صفته الإلهية الكمالية .

* * *

نعم . . لسنا نحن المسلمين الذين نقول إن الدين الذى اعتنقته أوربا لم يكن دين الله المنزل على عيسى عليه السلام ، إنما يقوله مؤرخوهم وكتابهم ، ويقوله كل من يعرف حقائق التاريخ .

ولقد كان مدى التحريف هائلا جدًا فى ذلك الدين الذى اعتنقته أوربا وظنت أنه دين الله .

ولم يكن التحريف فى مجال العقيدة وحدها ـ وهو خطير فى ذاته ـ ولكنه وقع فى أمر آخر لايقل خطرا عن العقيدة ، هو فصل العقيدة عن الشريعة ، وتقديم الدين للناس كأنه عقيدة فقط بغير تشريع !

وقد كان لهذا آثار بالغة الخطورة فى حياة أوربا . . السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية . . وفى كل اتجاه .

لقد أشار « ويلز » إلى أن الدين قد تحول على يد بولس من بساطته وصفائه الذى جاء به عيسى ابن مريم إلى دين « المذبح والكاهن» الذى كان قائما فى الديانات الوثنية

---

(١) يرجع رينان ما أدخله بولس من الفساد على دين المسيح عليه السلام إلى أنه لم يفهم تعاليم المسيح ، ونحن نرجح أن المسألة لم تكن عدم الفهم ، إنما كانت الخلط المتعمد . . ومع ذلك فلو فرضنا جدلا أن المسألة نشأت عن عدم الفهم ، فتبقى الحقيقة قائمة : أن دين بولس ليس هو الدين المنزل من عند الله .

(٢) عن محاضرات فى النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢١٥ .

السابقة . . وذلك حق . . وهو ذو صلة بالتحريف الذى أحدثه ذلك اليهودى المتنصر الذى دخل النصرانية ليفسدها من الداخل [١] ، كما فعل عبد الله بن سبأ بعد ذلك بعدة قرون حين دخل الإسلام ليحاول إفساده من الداخل ، ولكنه لم ينجح كما نجح شاول من قبل ، لأن الله تكفل بحفظ رسالته الخاتمة ، بينما وَكَلَ حفظ الرسالات السابقة للبشر فضيعوها :

﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذى أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما **استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء** . . . ﴾ [٢] .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [٣] .

وفرق كبير بين حفظ الله واستحفاظ البشر . فالكتاب الذى تكفل الله بحفظه قد بقى كما أنزل بغير تحريف ، فظل قائما ليطبق فى واقع الأرض ، وليرجع الناس إليه كلما همّ أحد أن يحدث تغييرا فى أصول الدين ، بينما حرفت الكتب الأخرى التى وكل حفظها إلى البشر ، وسهل على أصحاب الأهواء ـ ومن بينهم ذلك اليهودى المتنصر ـ أن يحدثوا فى دين الله ماليس فيه ، كما تبين من شهادات الذين استشهدنا بهم آنفا من الكتاب النصارى أنفسهم .

وكما قلنا لم يكن التحريف مقصورا على العقيدة (تأليه عيسى ، وادعاء بنوته لله سبحانه وتعالى ، وضم إله ثالث إليهما ليصبح الإله ثلاثة فى واحد : الأب والابن وروح القدس) إنما أضيف إليه فصل العقيدة عن الشريعة ، وتقديم الدين للناس عقيدة بلا شريعة ، تحت شعار لاسند له من دين الله المنزل ، قوامه : « أدِّ ما لقيصر لقيصر ومالله لله ! » [٤] .

ومن شأن الدين المحرف على هذا النحو أن يتحول علماؤه ـ أورجاله ـ إلى كهنة ، وأن يتحول الكهنة مع الزمن إلى وسطاء بين البشر وبين الله ، فيكون لهم سلطانٌ طاغٍ على أرواح الناس . .

إن لكل دين « رجالا » مهمتهم أن يتفقهوا فى الدين ليعلموا الناس أمور دينهم التى

---

(١) أشرنا إلى شاول وقصة دخوله فى النصرانية فى كتاب « رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر » ص ٧٦ ويراجع فى ذلك كتاب « محاضرات فى النصرانية » لمحمد أبو زهرة .

(٢) سورة المائدة [٤٤] . (٣) سورة الحجر [٩] .

(٤) أشرنا إلى هذه المقولة المنسوبة للمسيح فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » ص ١٦ ، وقلنا إنه يتعذر توثيق نسبتها إلى المسيح ، وإنها حتى لو ثبتت نسبتها إليه فلا يمكن أن يكون المقصود بها إعطاء قيصر حق التشريع من دون الله ، إنما يقصد بها عدم الدخول فى معركة مع القيصر فى فترة الاستضعاف .

لايستطيعون أن يتعرفوا عليها بأنفسهم ، فيتعلموها على يد أولئك الذين تفقهوا فيها .

وحين يكون الدين عقيدة وشعيرة وشريعة ، وعلما للدنيا والآخرة ، يكون هؤلاء «الرجال» علماء وفقهاء ، ودعاة ومربين ، يربون بالقدوة الطيبة وبالعلم النافع الذى يبصّر الناس بآخرتهم ودنياهم .

أما حين يكون الدين عقيدة فقط بغير شريعة ، وعقيدة محرّفة على هذا النحو الذى لايستطيع العقل أن يدركه أو يسيغه ، فهنا تنحصر مهمة أولئك « الرجال» فى محاولة وصل الناس بربهم عن طريق الجانب الروحانى وحده من ذلك الدين ، دون الجانب الفكرى أو العقلانى ـ لأنه أصلا لايخضع للعقل ـ ودون الجانب الفقهى والتعليمى الذى يبصّر الناس بمنهج الحياة الصحيح الذى ينظم لهم جوانب الحياة المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية . . فينقلب أولئك « الرجال » بمقتضى ذلك الحال إلى « كهنة » يحتفظون « بالأسرار » . . الأسرار التى تستعصى على أفهام الناس ، ويصبحون ـ بمقتضى ذلك الحال أيضا ـ وسطاء بين العبد والرب ، لأن الطريق بين العبد والرب محفوف بتلك الأسرار العجيبة التى تحتاج إلى وسيط يفسرها للعبد ، وهو سالك طريقه إلى الله ، أو على الأقل يؤنسه فى وحشة الطريق الغامض الذى يسلكه إلى الله ، فيطلق له إشعاعة روحية يحاول بها أن يهتدى فى منعرجات الطريق !

وهكذا أصبح « رجال الدين » فى النصرانية المحرفة « كهنة » كما أشار « ويلز » يقومون بالطقوس التعبدية ، ويحتكرون تفسير الوحى ، فأصبح لهم نفوذ هائل على أرواح الناس . . وكانت تلك هى نقطة البداية الخطيرة التى أدت إلى الطغيان الهائل الذى مارسته الكنيسة ورجال الدين . .

إن « الكنيسة » ذاتها بدعة مبتدعة لم يتنزل بها سلطان من عند الله .

ففى الديانة اليهودية التى نزلت لبنى إسرائيل قسّم الرب الإله ـ كما تروى التوراة ـ مهام أسباط بنى إسرائيل ، فعهد إلى اللاويين ـ أبناء لاوى بن يعقوب ـ بمهمة تطبيق الشريعة ، لابوصفهم « كنيسة » ولكن بوصفهم قضاة يحكمون بين الناس بما أنزل الله فى التوراة (بصرف النظر عما أحدثوه من تحريف فى تشريعات التوراة ذاتها) وكان هذا أشبه بتنظيم إدارى ، لايجعل للاويين قداسة خاصة دون بقية بنى إسرائيل .

ثم أرسل عيسى عليه السلام لبنى إسرائيل مصدقا لما بين يديه من التوراة وليحل لهم بعض الذى كان قد حرم عليهم بسبب كفرهم ، كما جاء على لسانه فى القرآن الكريم :

﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم : أنى أخلق لكم من الطين

كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص ، وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (١) .

فكان المفروض أن يجرى الأمر فى عهد عيسى عليه السلام على ذات النسق الذى جرى به على عهد موسى عليه السلام ، مع التعديلات التى وردت فى التشريع . أما الكنيسة التى ابتدعتها النصرانية المحرفة فلا أصل لها فى دين الله ولاسند . . إلا ذلك السند المزيف المنسوب إلى المسيح : « أنت بطرس . وعلى هذه الصخرة ابن كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ماتربطه فى الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات !! » (٢) .

إنها قولة لاتصدر عن نبى ! فعيسى نفسه ـ عليه السلام ـ لايملك أن يربط شيئا أو يحله فى الأرض إلا بإذن ربه ، وليس له أن يحل أو يحرم إلا بإذن الله :

﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون . ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴾ (٣) .

﴿ قل : فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ؟! ﴾ (٤) .

فإذا كان هذا هو حال المسيح نفسه ـ عليه السلام ـ فكيف يمنح هذا الحق الذى لايملكه لنفسه ـ فيعطيه لبطرس أو غيره من البشر ، وهو حق الله الخالص الذى لايشاركه فيه أحد على الإطلاق ؟

ولكن الكنيسة نشأت واستمدت سلطانها الزائف من تلك الأسطورة المنسوبة للمسيح ، وأصبحت هى ذاتها إحدى تحريفات ذلك الدين !

ثم إن الكنيسة لم تكتف بسلطانها الروحى على قلوب الناس ، الذى يفهم من شعارها ذاته الذى رفعته منسوبا إلى المسيح : « أدّ ما لقيصر لقيصر ومالله لله » . . إنما كان ذلك فى وقت استضعافها فى القرون الثلاثة الأولى ، حيث كان النصارى

---

(١) سورة آل عمران [٤٩ ـ ٥٠] .

(٢) إنجيل متى ، الإصحاح السادس عشر ، [١٩ ـ ٢٠] .

(٣) سورة النساء [١٧٢] .   (٤) سورة المائدة [١٧] .

مضطهدين فى عهد القياصرة الوثنيين الذين كانوا يحكمون الإمبراطورية الرومانية ويشتدون فى اضطهاد النصارى وتعذيبهم ومطاردتهم حتى سكنوا الأديرة فرارًا بدينهم من الاضطهاد الواقع عليهم، الذى كان يصل أحيانا إلى حد إلقائهم إلى الأسود الجائعة لتفتك بهم أحياءً ، أو تعليقهم أحياءً على الصلبان حتى الموت ، وهى الطريقة التى كان الرومان يستخدمونها لتنفيذ أحكام الإعدام !

ولكن الكنيسة استأسدت بعد ذلك فى القرن الرابع حين دخل قسطنطين فى النصرانية لأهداف سياسية كما يقول المؤرخون ، ومكن للكنيسة ورجالها ، بعد أن أفلح فى مزج دينها بأساطير الوثنية ، وأرضى بذلك النصارى والوثنيين معا ، وأمَّن سلطانه على الإمبراطورية التى كان النزاع الدينى قد أوشك على القضاء عليها !

يقول درابر الأمريكى فى كتاب « الدين والعلم »

« ودخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ولم يخلصوا له يوما من الأيام . . وكذلك كان قسطنطين . . فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً فى آخر عمره . .

« وإن هذا الإمبراطور الذى كان عبداً للدنيا ، والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئا ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين ـ النصرانى والوثنى ـ أن يوحدهما ويؤلف بينهما ، حتى إن النصارى الراسخين أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة ! ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة ! وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها ! » (1).

وحين أصبح للكنيسة سلطان سياسى إلى جانب السلطان الروحى بدأ الطغيان !

إن الطغيان طبع بشرى لايحتاج أن نبحث له عن أسباب :

﴿ كلا ! إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ! ﴾(2) .

إنما يمنع الناس من الطغيان شيء واحد من داخل نفوسهم ، هو تقوى الله . أوشيء واحد من خارج نفوسهم هو الخوف من قوة أخرى مكافئة لقوتهم أو زائدة عليها! ولم يرو أحد من المؤرخين أن ضمائر « رجال الدين » كانت فوق مستوى

---

(1) نقلا عن كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد أبى الحسن الندوى» .

(2) سورة العلق [٦ ـ ٧] .

الشبهات ، بل رووا أن كثيرا منهم كانوا على عكس ذلك ، فلما ملكوا السلطان السياسى فما الذى كان يمنعهم من الطغيان وهم يملكون من قبل ذلك السلطان الهائل على وجدان الناس ؟ !

فرضوا سلطانهم على الأباطرة . . وأصدر البابا « نقولا الأول » بيانا قال فيه :

« إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها . وإن أساقفة روما قد ورثوا سلطات بطرس فى تسلسل مستمر متصل . ولذلك فإن البابا - ممثل الله على ظهر الأرض - يجب أن تكون له السيادة والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكاما كانوا أو محكومين » (١) .

وفرضوا لأنفسهم عشور أموال الناس ، فضلا عن تشغيل الناس سخرة فى حقول الكنيسة التى سرعان ماأصبحت فى ظل وضعها الجديد من ذوات الإقطاع ، وفضلا عن الإتاوات المفروضة على الأغنياء ، والوصايا المأخوذة بسيف الحياء حين يستدعى « الكاهن » لكتابة الوصية قبل الموت !

ثم فرضوا سلطانًا فكريًا رهيبًا يحجر على العقول أن تفكر إلا بإذن الكنيسة ، وفى الحدود التى تسمح بها الكنيسة ! وقد كان هذا بالنسبة للكنيسة ضرورة لازمة منطقية مع التحريف الذى حدث فى ذلك الدين ! فالإله الواحد الذى أصبح ثلاثة ، والثلاثة الذين هم فى ذات الوقت واحد . . والعشاء الربانى الذى تتحول فيه كسرة الخبز إلى جسد المسيح ، وجرعة الخمر التى تغمس فيها كسرة الخبز إلى دم المسيح وتتجدد به الصلة بين العبد والرب حين يأكل الإنسان جسد المسيح ويشرب من دمه ! وكرسى الاعتراف الذى يصعد منه غفران « الكاهن » للذنوب إلى « الرب » فيعتمده فى عليائه ، وصك الغفران الذى يكتبه الكاهن فى الأرض فيدخل به الإنسان الجنة فى الآخرة بغير حساب . . إلى عشرات من أمثال تلك « الأسرار ! » التى هى فى حقيقتها أساطير . . كلها أمور لايستطيع « العقل » أن يدركها ولا أن يتدبرها . . فماذا لو أعمل الناس عقولهم ، فاكتشفت عقولهم أن كل مايقال لهم باسم « العقيدة » كلام لايثبت للتمحيص ؟ ! ماذا يبقى للكنيسة عندئذ من سلطان على الناس ؟ ! الحل الأمثل لهذه الحال إذن أن تحجر الكنيسة على العقل ، وأن يعتبر التفكير هرطقة تفضى إلى إهدار الدم فى الدنيا ، والحرمان من الغفران فى الآخرة !

---

(١) قصة الحضارة لول ديورانت ترجمة عبد العزيز جاويد ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، ج ١٤ ص ٣٥٢ .

ثم لما بدأت العلوم تتسرب إلى أوربا من العالم الإسلامى عن طريق الترجمة ، وتحدث مايمكن أن نسميه « غزوا فكريًا إسلاميًا » خاصة بعد هزيمة النصرانية أمام المسلمين فى الحروب الصليبية [١] . . جن جنون الكنيسة ففرضت حجرا على « العلم » وأهدرت دم كل من يقول ـ يومئذ ـ بكروية الأرض ، أو أنها ليست مركز الكون ، وهو العلم الذى نقله علماء النصارى الأوائل من مؤلفات العلماء المسلمين ! [٢] .

ثم لما زاد تشكك النصارى فى سلامة العقيدة التى تلزمهم بها الكنيسة ، وتحجر عليهم التفكير فى شأنها تحت شعار: « آمن ولاتناقش » ، وزاد تمرد « المفكرين الأحرار» [٣] على سلطان الكنيسة الطاغى ، ابتدعت الكنيسة آخر مارمت به الناس من فنون الاضطهاد ، وهو محاكم التفتيش ، بكل بشاعاتها التى تقشعر لها الأبدان .

يقول « ويلز » :

« شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة فى الكنيسة هى محكمة التفتيش البابوية . . . وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير الإنسانى بالنار والعذاب . . وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعدام إلا نادرا بالملاحدة والكفار. فأما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون فى مائة ساحة من ساحات الأسواق فى أوربا ليراقبوا أجسام أعدائها ـ وهم فى غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم ـ تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة . وتحترق وتخمد معهم فى نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية ، فتصبح رمادا تذروه الرياح » [٤] .

* * *

لم يكن ذلك كل مافعلته الكنيسة فى تنفير الناس من ذلك الدين . .

فقد انقلب الدين على يد الكنيسة إلى عامل معّوق عن الحياة ، مضاد للعلم

---

(١) لايعطَى هذا الأمر ـ وهو هزيمة النصارى النهائية فى الحروب الصليبية ـ حقه من البحث فيما يكتبه المؤرخون حتى المسلمون منهم ـ لأننا فى الغالب نرجع إلى المراجع الأوربية ، وهم يكرهون أن يذكروا الحقائق المتعلقة بهزيمتهم ، ومن بينها أن هذه الهزيمة قد هيأت نفوسهم لنقل الحضارة والعلوم الإسلامية والتأثر بها ، وأن هذا كان بدء « النهضة الأوربية » !

(٢) كان علماء المسلمين قد اهتدوا إلى هذه الحقائق منذ القرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى ـ ولكن أوربا لم تتعرف عليها إلا بعد حركة الترجمة ابتداء من القرن الثانى عشر وماتلاه .

(٣) كلمة Free Thinker لاتعنى « المفكر الحر » بالمعنى الذى يتبادر إلى أذهاننا حين نقرأ هذه الكلمة ، ولكنها مرادفة للإلحاد .

(٤) ويلز ، معالم تاريخ الإنسانية ، ج ٣ ، ص ٩٠٨ ـ ٩٠٩ .

والحضارة والتقدم والرقى ، محقّر للإنسان ونزعاته الحيوية ، مهملٍ للحياة الدنيا بوهم العمل على خلاص الروح ، والتهيؤ لملكوت الله فى الآخرة .

ينسب للمسيح عليه السلام أنه قال : « إذا أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك فإنه خير لك أن يهلك منك عضو واحد من أن يلقى بدنك كله فى النار »

وأنه قال : « من أراد الملكوت فليترك ماله وأهله وليتبعنى » .

وأنه قال : « من أراد الملكوت فليحمل صليبه وليتبعنى » (١).

وكلها دعوة للزهد فى الحياة الدنيا والارتفاع عن الشهوات . .

وكلها لايستبعد أن تصدر عن رسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، فضلا عن الرسول الذى أرسل إلى اليهود خاصة الذين كان حب الحياة الدنيا قد أعماهم عن الآخرة ، وحب المال وعبادة الذهب قد أديا بهم إلى الكفر بالله .

ومثل هذه الدعوة تجدها فى آيات الكتاب المبين ، وفى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وماالحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (٢).

﴿ قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله . فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ (٣).

﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولاأولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ (٤).

﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم ﴾ (٥).

« ماملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه . بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه . » (٦).

« إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . . » (٧).

---

(١) بمعنى فليوطن نفسه على ملاقاة الموت ، فقد كانت طريقة الرومان فى تنفيذ أحكام الإعدام هى التعليق على الصليب . . وليس المعنى حمل صليب من ذهب أو فضة كما يفعل بعض النصارى !!

(٢) سورة آل عمران [١٨٥] .

(٣) سورة التوبة [٢٤] .

(٤) سورة « المنافقون » [٩] .

(٥) سورة التغابن [١٥] .

(٦) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

(٧) متفق عليه .

ولكن المسلمين لم يفهموا من ذلك أنها دعوة لإهمال الحياة الدنيا من أجل الفوز بالآخرة ، ولادعوة لكبت نشاط الجسد الحيوى من أجل خلاص الروح . . ذلك أن تعليمات الكتاب والسنة منعت ذلك الفهم الجانح :

﴿ قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ (١) .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا . . ﴾ (٢) .

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . . ﴾ (٣) .

« ألا إنى لأعبدكم لله وأخشاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (٤) .

« . . وإن فى بضع أحدكم لأجرا . قالوا : يارسول الله إن أحدنا ليأتى شهوته ثم يكون له عليها أجر ؟! قال : أرأيت لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فإذ وضعها فى حلال فله عليها أجر » (٥) .

لذلك لم تنقلب الدعوة إلى الزهد فى متاع الأرض إلى رهبانية منعزلة عن الحياة كالتى ابتدعها النصارى :

﴿ ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم ، إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون ﴾ (٦) .

إنما كانت توازنا جميلا رائعا بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، وبين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة .

كذلك لم يدر فى خلد المسلمين قط أن الدين يدعوهم إلى قبول الظلم فى الحياة الدنيا ، والرضى به طمعا فى الفوز بالفردوس فى الآخرة ، كما زعمت الكنيسة وهى تعبّد الشعوب الأوربية للإقطاع ، وتحضها على الاستكانة له وعدم التمرد عليه ، بدعوى أن « من خدم سيدين فى الدنيا خير ممن خدم سيدًا واحدًا ! » . . ذلك أن الله حرم الاستكانة للظلم على من يقدرون على دفعه وأمر بالجهاد لإزالته :

(١) سورة الأعراف [٣٢] .
(٢) سورة القصص [٧٧] .
(٣) سورة هود [٦١] .
(٤) أخرجه الشيخان .
(٥) أخرجه مسلم .
(٦) سورة الحديد [٢٧] .

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ! قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟! فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرًا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلاً ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوًّا غفورًا ﴾ (١) .

﴿ ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليًا ، واجعل لنا من لدنك نصيرًا ﴾(٢) .

* * *

ومهما يكن من أمرٍ فقد تحول الدين النصرانى على يد الكنيسة وآبائها ومفكريها إلى أغلال تفسد الحياة وتقعد بها عن النمو السوىّ ، وتحولها إلى مستنقع آسن لاينبض بالحياة ولايسمح للحياة أن تنبض فيه .

دين يهمل الحياة الدنيا بدعوى تفاهتها وحقارتها وعدم جدارتها بالاهتمام ، وبدعوى أن الإنسان خاطئ بطبعه ، ولاسبيل إلى إصلاحه فى الحياة الدنيا وكفه عن الخطيئة إلا بكفه عن ممارسة الحياة ذاتها ـ بالرهبانية ـ وتوجيه اهتمامه كله للآخرة ، والإيمان «بالمخلّص » ، لأن هذا وحده ـ لا العمل الصالح فى الدنيا ـ هو سبيل الخلاص والجلوس عن يمين الرب فى جنة الفردوس فى اليوم الآخر .

دين يحتقر الجسد ويشمئز من نشاطه الفطرى ، لأن هذا النشاط هو الذى يوقع الناس فى الخطيئة ، ومادفع إلى الخطيئة فهو ذاته خطيئة ! وعلاجه الوحيد هو الكبت والقهر (٣) .

دين يحقّر الإنسان ليمجد الرب . . كأنما لايتحقق تمجيد الرب إلا بتحقير الإنسان . . . وذلك بدعوى أن الإنسان إذا اتجه لتحقيق وجوده تمرد على الرب ، فلابد من سحقه وإذلاله وتحقيره لكى يتمجد الرب فى قلبه ، فيحصل على الخلاص ! (٤) .

---

(١) سورة النساء [٩٧ ـ ٩٩] . (٢) سورة النساء [٧٥] .

(٣) الكبت شيء والامتناع الإرادى شيء آخر (انظر إن شئت كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام ص٧٣ـ٩١) فالكبت هو استقذار الدافع الغريزى فى ذاته وعدم الاعتراف له بشرعية الوجود ، سواء مارسه الإنسان فى الواقع أم لم يمارسه . أما الامتناع الإرادى فلا يلزم منه الاستقذار .

(٤) لاحظ حرص الرهبانية والصوفية كلتيهما على إذلال كيان الإنسان لتخليصه من الإحساس بذاته لكى يَخْلُصَ لله !

دين يصرف الناس عن عمارة الأرض ، وعن ترقية الحياة وتنميتها ، بدعوى أن ذلك سيصرف الناس عن التوجه إلى الآخرة ، وسيحرك شهواتهم التى لابد أن تكبت ، ومن ثم يوقعهم فى الخطيئة الواقفة للإنسان بالمرصاد !

دين يحارب العلم ، بسبب جهل البابوات ورجال الدين ، وعدم اهتمام غالبيتهم بتثقيف أنفسهم ، واكتفائهم بسلطانهم الروحى على الجماهير ، وانكبابهم على «الكتاب المقدس » بكل ما فيه من تحريف ، على اعتبار أنه يحوى كل العلم المطلوب للإنسان فى دنياه من أجل الخلاص فى الآخرة !

دين لايؤمن بالحركة النامية لأنه يؤمن بالثبات المطلق فى كل شىء ، ويعتبر أى تغيير فى الصورة خروجًا على الأصل الثابت الذى ينبغى أن تكون عليه الأشياء ، لأنها وجدت على هذه الصورة بإرادة الله ، فينبغى أن تبقى كذلك تمجيدًا لإرادة الله ، وزجرا للإنسان ـ فى تفاهته وحقارته ـ أن يتمرد على إرادة الله !

دين يحجر على العقل أن يفكر ، بدعوى أنه حين يفكر يزيغ ! ولاسبيل إلى منعه عن الزيغ إلا بمنعه عن التفكير ! ويكفى الأمة أن ينوب عنها الآباء (البابوات) فى كل شىء . هم يفكرون لها ، وهم يفسرون لها ، وهم يعطونها الإجابة الصحيحة عن كل مايخطر لها ، لابعلم حقيقى ، ولكن بأنهم نواب بطرس وخلفاؤه ، وبطرس مفوض من الرب ـ أى عيسى ابن مريم عليه السلام فى زعمهم ، ونستغفر الله من الشرك ـ ومايربطه فى الأرض لايحل فى السماء ، ومايحله فى الأرض لايربط فى السماء ! فهم بهذه الخلافة يتحدثون باسم الرب ، وكلامهم له صفة القداسة بذلك التفويض الإلهى ، وهم كذلك معصومون لأنهم خلفاء خليفة الرب . فلابد أن يكون قولهم هو الصواب !

دين لايشعر الناس فى ظله بالأمن . . فهم مهددون فى داخل أنفسهم بالشعور الدائم بالخطيئة أو الخوف من الوقوع فيها ، ومهددون من خارج أنفسهم بسلطان الكنيسة الطاغى التى لاتكتفى ـ فى محاسبتها للناس ورقابتها عليهم ـ بما يظهر منهم بالفعل ، بل بما يحتمل أن يظهر منهم فى يوم من الأيام . . فتبدأ بسوء الظن ، وتثنّى بالملاحقة المستمرة برغبة مسبقة أن تعثر على مايدين الناس ويوقعهم تحت طائلة العقاب . . وياله من عقاب ذلك الذى تقوم به محاكم التفتيش !

* * *

ليس العجب أن تنفر أوربا من ذلك الدين وتتمرد عليه . .

إنما كان العجب أنها صبرت عليه كل تلك القرون التي صارت ـ فيما بعد تمردها ـ تسميها « القرون الوسطى المظلمة » !

ولكن الواقع التاريخى يقول إنها لم تبدأ تمردها على ذلك الدين إلا بعد احتكاكها بالمسلمين ، وبصفة خاصة بعد هزيمتها فى الحروب الصليبية . .

عندئذ بدأت أوربا تحس بمقدار الظلام الذى عاشت فيه كل تلك القرون ، وبدأت تتوق للخلاص الحقيقى من أوهاق الكنيسة وطغيانها ، وبدأت تهفو إلى الإسلام بتأثير « الغزو الفكرى الإسلامى » الوافد إلى أوربا من الشرق والغرب والجنوب ، مع حركة الترجمة بصفة خاصة . .

وهنا جن جنون الكنيسة ـ كما ألمحنا من قبل ـ وقامت تحارب التأثير الإسلامى بكل الوسائل ، وكان من بين تلك الوسائل تكليف الكنيسة لكتابها ومفكريها أن يشوهوا صورة الإسلام والمسلمين فى عيون الأوربيين لينفروهم من الدخول فى الإسلام ، وتوجيه أقبح الشتائم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام ، ونفى الرسالة والوحى عنه ، وتصوير الإسلام بأنه دين شهوانى فظ غليظ عدوانى سفاك للدماء . . كما كان من بين تلك الوسائل أيضا محاكم التفتيش !

وحينئذ وقعت أوربا فى المأزق الذى تعانى آثاره حتى اليوم ، حين نفرت من دينها المحرف ، ومن الحكومة « الثيوقراطية » ـ حكومة رجال الدين ـ وأوصد الباب أمامها فى الوقت ذاته إلى الدين الصحيح . .

وكانت « العلمانية » ، بما تشتمل عليه من إبعادٍ للدين عن الهيمنة على واقع الحياة ، وعزله عن النفوذ السياسى بصفة خاصة ، وتقرير حق الإلحاد ، والمنافحة عنه ، وحق مهاجمة الدين ومفاهيمه لمن أراد ذلك . . كانت العلمانية ـ بهذه الصفات ـ هى سبيل الخلاص ـ فى نظر أوربا ـ من ربقة ذلك الدين ، الذى يمثل فى حسها الظلام والأغلال التى تسحق وجود الإنسان !

الدين الحق

إذا كانت تجربة أوربا مع دينها هى تلك التجربة البئيسة التى انتهت بها إلى العلمانية فإن دين الله ليس كذلك . لم يكن كذلك حين أنزل من عند الله ، ولم يكن كذلك فى التطبيق العملى فى الواقع التاريخى .

يقول تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (١) .

هو إسلام الوجه لله ، وعبادته وحده دون شريك ، واتخاذ أوامره وتعليماته منهجا للحياة .

وهذا الوصف لدين الله ليس خاصا برسالة معينة من الرسالات السماوية ، بل هو وصف لكل رسالة أنزلت من عند الله من لدن آدم ونوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنه أشد مايكون انطباقا على الرسالة الخاتمة التى أنزلت على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، والتى تمت بها النعمة الربانية واكتمل الدين :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (٢).

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . . ﴾ (٣).

* * *

كل رسالة جاءت من عند الله كانت عقيدة وشعيرة وشريعة ومنهج حياة (٤).

فأما العقيدة فلم تتغير على مدى الرسالات كلها ، وليس من شأنها أن تتغير . لاإله إلا الله . اعبدو الله مالكم من إله غيره .

---

(١) سورة آل عمران [١٩] .
(٢) سورة المائدة [٣] .
(٣) سورة الصف [٩] .
(٤) انظر إن شئت كتاب « لاإله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة» .

وأما الشعائر من صلاة وصيام وزكاة فلم تتغير فى عمومها ، وإن اختلفت تفصيلاتها وهيئاتها من رسالة إلى رسالة عبر التاريخ .

وأما الشرائع فقد اختلفت اختلافا واسعا بحسب أحوال الأقوام الذين أرسل إليهم الرسل واحتياجاتهم ، حتى جاءت الشريعة المكتملة مع الرسالة الأخيرة ، التى نزلت للبشرية كافة ، وللزمن المقبل كله من لدن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،واكتمل معها منهج الحياة الذى يريد الله سبحانه وتعالى أن تسير عليه البشرية إلى يوم القيامة .

ولحكمة أرسل الله الرسل ، وأنزل معهم البينات :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾(١).

تلك هى حكمة إرسال الرسل إلى البشرية . . « ليقوم الناس بالقسط » . وأداة تحقيق القسط فى واقع الناس هى الكتاب والميزان ؛ والرسول هو المبلغ والمبيّن والشارح والمعلم والقدوة الذى يعلم الناس كيف يقيمون حياتهم بالقسط :

﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزّل إليهم ، ولعلهم يتفكرون ﴾ (٢).

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾(٣) .

ومن رحمة الله بعباده أنه لم يتركهم بلا هداية لكى لايضلوا ، ويطغى بعضهم على بعض فيختل الميزان ويضيع القسط .

والخلل فى حياة الناس يمكن أن يأتى من داخل النفس أو من خارجها .

فأما من داخل النفس فقد اقتضت مشيئة الله ـ وقد خلق الإنسان ليعبده ، وخلقه ليبتليه ـ أن يجعل مادة الابتلاء ـ بمعنى الاختبار ـ هى متاع الحياة الدنيا ، والشهوات المركبة فى كيان الإنسان تجاه ذلك المتاع :

﴿ وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٤).

---

(١) سورة الحديد [٢٥] .
(٢) سورة النحل [٤٤] .
(٣) سورة الأحزاب [٢١] .
(٤) سورة الذاريات [٥٦] .

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ (١).

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا . والله عنده حسن المآب ﴾ (٢).

والابتلاء الذى يتعرض له الإنسان بشأن متاع الحياة الدنيا هو الأسلوب الذى يتناول به ذلك المتاع ، والقدر الذى يتناوله منه ، والحدود التى يقف عندها أو يصل إليها . بعبارة أخرى هل يلتزم فى تناوله لذلك المتاع بما أنزل الله ، فيلتزم بالحلال الذى أحله الله والذى يعلم أن الخير متحقق به ، ويمتنع عن الحرام الذى حرمه الله ، ويعلم سبحانه أن الشر متحقق فيه ، أم تجرفه شهواته فيتجاوز حدود الله ويقع فى المحظور . . ؟

أما من خارج النفس فهناك غواية الشيطان الذى أخذ على عاتقه غواية بنى آدم ليعصوا الله ويتجاوزوا حدوده :

﴿ قال : أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين . قال : فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ (٣) .

والأداة التى يستخدمها الشيطان فى الغواية هى ذلك المتاع ، وماركب فى كيان الإنسان تجاهه من شهوات ، فينفخ فيها لتشتعل ، ليصعب على الإنسان الضبط فينجرف وراء الشهوات .

والابتلاء الذى يتعرض له الإنسان من قبل الشيطان هو ذات الابتلاء : هل يطيع الله ويلتزم بما أنزله من حلال وحرام ، وله على ذلك الجنة ، أم يطيع الشيطان الذى يؤزه لمعصية الله ، وجزاؤه على ذلك النار ؟!

﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان (٤) إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ؟ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الإنسان [٢] .
(٢) سورة آل عمران [١٤] .
(٣) سورة الأعراف [١٤ ـ ١٧] .
(٤) العبادة هنا معناها الطاعة والاتباع .
(٥) سورة يس [٦٠ ـ ٦١] .

تلك قصة الإنسان على الأرض . . وذلك مصيره يوم يلقى الله . . . ابتلاء فى الحياة الدنيا ، وجزاء فى الآخرة .

ولكن الله لم يترك الإنسان يتعرض للابتلاء بلا معين . .

فقد ركب فى كيانه بادئ ذى بدء الأداة التى تعينه على ضبط ماركب فى كيانه من شهوات :

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (١) .

ثم أرسل له الرسل لإيقاظ تلك الأفئدة لكى لاتغفل عن مهمتها ، وجعلهم مبشرين ومنذرين ليقوموا بعملية التذكير :

﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (٢) .

﴿ وذكر ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (٣) .

وبذلك تتلاقى الجوانب كلها ، ويرتبط بعضها ببعض ارتباطا محكما ، ويختار الإنسان طريقه على بينة من أمره ، ويتحمل مسئولية اختياره :

﴿ ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ (٤) .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ (٥) .

وتتضح فى ذلك الإطار مهمة الرسل فى حياة البشرية ، ومهمة الدين فى حياة الإنسان . .

* * *

لاغنى للإنسان عن الدين . .

فإذا كان الإنسان قد خلق لعبادة الله ، فالدين هو الذى يبين له الطريق الصحيح لعبادة الله ، وإذا كان قد خلق فى الوقت ذاته للابتلاء فالدين هو الذى يبين له الطريق الصحيح للنجاح فى الابتلاء .

---

(١) سورة النحل [٧٨] .
(٢) سورة النساء [١٦٥] .
(٣) سورة الذاريات [٥٥] .
(٤) سورة الشمس [٧ ـ ١٠] .
(٥) سورة الزلزلة [٧ ـ ٨] .

ثم إن الإنسان عابد بفطرته ، سواء استقامت فطرته على الأصل الذى فطرها الله عليه أم انحرفت لسبب من الأسباب :

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟! قالوا : بلى ! شهدنا ! ﴾ (١).

« إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين . . » (٢).

ومن ثم فليس له فى العبادة إلا إحدى حالتين : إما أن يكون عابدا لله ، وإما أن يكون عابـدًا لغير الله ، وحين يكـون عابـدًا لغيـر الله فإنـه يكـون عابدًا للشيطـان ، ذلك أنـه لا توجد إلا هاتان العبادتان فحسب ، وإن كانت لعبادة الشيطان سبل مختلفة وأسماء مختلفة ، ورايات مختلفة ، ولعبادة الله صراط واحد مستقيم :

﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (٣).

وحين يعبد الإنسان الله يكون « فى أحسن تقويم » وحين يعبد الشيطان يكون «أسفل سافلين » ، ومهمة الدين فى حياة الإنسان أن يرفعه دائما ليكون فى أحسن تقويم ، ويمنعه أن يسقط أسفل سافلين . .

* * *

إذا عرفنا مهمة الدين فى حياة الإنسان فلزم أن نعرف فى الوقت ذاته ماهو « الدين» !

وقد يبدو السؤال من البداهة بحيث لايحتاج أن نسأله ولا يحتاج أن نجيب عليه !

ومع ذلك فتحديد معنى الدين قد أصبح ـ بسبب العلمانية المنتشرة فى الأرض ولأسباب أخرى ـ قضية ذات أبعاد خطيرة . . قضية تعقد من أجلها الندوات ، وتؤلف الكتب ، وتلقى المحاضرات . . ويدخل قوم من أجلها السجون ، وتعلق المشانق ويستشهد الشهداء !

لاجرم أنها القضية الكبرى فى الوجود . . . .

من أسباب الغبش الذى يغشّى قضية الدين تلك الغربة التى يعيش فيها الإسلام اليوم :

« بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » (٤).

---

(١) سورة الأعراف [١٧٢] .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) سورة الأنعام [١٥٣] .

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارمى .

ومن أسبابها ثقل « الأمر الواقع » على حس الناس ، وهو أمر واقع بعيد عن الصورة الحقيقية للإسلام .

ومن أسبابها بروز المعنى الذى فهمته أوربا من الدين ـ بسبب غلبة أوربا اليوم على الأرض ـ ومفاده أن الدين علاقة بين العبد والرب ، محله القلب ولاشأن له بواقع الحياة ! على أساس أن الدين لله والآخرة ، والواقع « لقيصر » يصرّفه كيف يشاء !

فإذا أضيف إلى ذلك الفكرُ العلمانى [1] الذى يسود الأرض اليوم ، والذى يفصل الدين عن السياسة ، ويعزله عن الهيمنة على أمور الناس « الحياتية » فقد وصل الغبش إلى قمته ، وأصبح الأمر فى حاجة إلى البيان الشديد !

* * *

مرجعنا فى أمور الحياة كلها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وماختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى ، عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [2] .

﴿ وماآتاكم الرسول فخذوه ، ومانهاكم عنه فانتهوا ﴾ [3] .

﴿ وماأرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ [4] .

فإذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكلمة الإسلام العظمى هى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله . ومعناها عبادة الله وحده دون شريك ، والالتزام بما جاء من عند الله عن طريق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

فما مقتضيات هذه الكلمة العظيمة التى يدخل الإنسان بها فى الإسلام ؟

إن لها مقتضيات شتى نستخلصها كلها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) يلاحظ أن « العلمانية » بمعنى فصل الدين عن الدولة ، قديمة فى الفكر الكنسى الذى قال : « أدّ مالقيصر لقيصر ومالله لله » ! ولكن الكنيسة فى أيام سطوتها فرضت سلطانها على قيصر لا لتلزمه بالحكم بما أنزل الله ، بل لتلزمه بأهوائها . أى إنها فرضت سلطانها هى ولم تفرض سلطان الشريعة . وهذا الذى جاءت العلمانية الحديثة لتقضى عليه ، وهو على وجه التحديد : فصل الدولة عن نفوذ رجال الدين !

(٢) سورة الشورى [١٠] .
(٣) سورة الحشر [٧] .
(٤) سورة النساء [٦٤] .

وربما كأن أيسر طريق إلى ذلك أن نعرف بأى شىء كان المشركون مشركين ، لنعلم ـ فى المقابل ـ كيف يصبح المسلمون مسلمين ، تحقيقا لقوله تعالى ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ (١) .

نجد فى كتاب الله هذه الأحوال والصفات للمشركين :

﴿ ص والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص . وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ؟! إن هذا لشىء عجاب ! ﴾(٢).

﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟! أفترى على الله كذبا أم به جنة ! ﴾ (٣) .

﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرّمنا من دونه من شىء ﴾ (٤) .

ثم جاء وصفهم فى آيات أخرى بأنهم «يبخلون بما آتاهم الله من فضله » و « ينفقون أموالهم رئاء الناس » وأنهم هلوعون جزعون ، وأنهم مطففون ، وأنهم « ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض » وأنهم يقتلون النفس التى حرم الله ، ويزنون ، وينحرفون فى تعاملهم مع الناس انحرافات شتى . .

وخلاصة ذلك أنهم يرفضون الإقرار بوحدانية الله ، وينكرون البعث ، ويكذبون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى كلها أمور تتعلق بالاعتقاد .

وأنهم يعبدون مع الله آلهة أخرى يتقدمون لها بألوان من العبادة لاتحق لغير الله سبحانه وتعالى .

وأنهم يحرمون ويحلون من دون الله ، أى يشرعون بغير ماأنزل الله .

وتلك الثلاثة : شرك الاعتقاد ، وشرك العبادة ، وشرك الاتباع (أو شرك التشريع) هى الجذور الأساسية الكبرى للشرك . .

ثم هناك أخلاقيات وأعمال أخرى نابعة كلها من أحد تلك الأنواع الثلاثة أو منها جميعا ، ويمكن أن نطلق عليها « متعلقات الشرك » . .

---

(١) سورة البقرة [٢٥٦] .
(٢) سورة ص [١ ـ ٥] .
(٣) سورة سبأ [٧ ـ ٨] .
(٤) سورة النحل [٣٥] .

ومقتضى ذلك ـ فى المقابل ـ أن يكون مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله هو البراءة من ألوان الشرك جميعا ومن متعلقاته .

أى إنه ـ بعبارة أخرى ـ الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، وتفرده ـ سبحانه ـ فى أسمائه وصفاته وأفعاله . وتوجيه كل ألوان العبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج ونذر وذبح واستغاثة واستعانة وولاء وبراء إليه وحده دون شريك . والالتزام بشرعه وحده وعدم التشريع بما يخالف شريعته . . ثم الالتزام بأخلاقيات لا إله إلا الله ، والالتزام بالمنهج الربانى فى كل أمور الحياة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية . . إلخ[١] .

ومع أن هذا كله هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فإنه ليس على درجة واحدة من الإلزام ، وليست مخالفته والخروج عليه بمنزلة واحدة فى ميزان الله .

ففى مقابل الجذور الرئيسية الثلاثة للشرك ، توجد جذور رئيسية ثلاثة للإيمان لايتحقق الإيمان أصلا إلا بوجودها ، وهى ما يتعلق بالاعتقاد ، والعبادة ، والتشريع .

١ ـ « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » كما جاء فى حديث : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم »[٢] .

٢ ـ أن تلتزم بالعبادات المفروضة وتجعلها خالصة لله وحده دون شريك .

٣ ـ أن تحتكم فى أمورك كلها إلى ما أنزل الله ، ولاتحدث تشريعا يخالف شريعة الله .

وفى مقابل « متعلقات الشرك » توجد « متعلقات للإيمان » لايخرج مخالفها من دائرة الإيمان وإنما ينقص إيمانه بمقدار مايعصى الله فيها ويزيد إيمانه بقدر مايأتى من الطاعات فيها ، ولكنه فى الحالين غير خارج عن دائرة الإيمان .

* * *

ذلك هو الدين الحق ، كما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد غشّت غواشٍ كثيرة على هذا الفهم الواضح للدين خلال القرون ، من الفكر الإرجائى ، والفكر الصوفى ، والبدع والمعاصى والانحرافات والغزو الفكرى فشوهت كثيرا من مفاهيم الدين الاعتقادية والتعبدية والعملية . . [٣] .

---

(١) راجع إن شئت فصل « مقتضيات لاإله إلا الله فى الرسالة المحمدية » من كتاب « لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة» .

(٢) أخرجه الشيخان .

(٣) راجع إن شئت كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح » .

ثم جاءت « العلمانية » ـ وهى لون من ألوان الغزو الفكرى ـ فركزت على مطلب معين لم يطلبه أحد من العصاة المنحرفين من قبل ، وهو فصل الدين عن الدولة وإخراج السياسة من الدين ، والمطالبة بعدم تحكيم شريعة الله ! !

وهذا الأمر هو الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب . .

* * *

نقول ابتداء إنه لون من ألوان الغزو الفكرى ، لأنه فكر غربى لم ينبت قط فى أرض الإسلام ، على كثرة مانبت فيها من انحرافات خلال القرون ! إنما جاء من تأثير الثقافة الغربية ، وغلبة أوربا على العالم كله ، وعلى العالم الإسلامى فى عصر ضعفه وانحساره وتخاذله .

ولاشك أن الهزيمة الروحية التى أصابت المسلمين بعد الهزيمة العسكرية أمام الغرب ، والتى نشأت من الخواء الذى أصاب العقيدة فى قلوب المسلمين فى العهود الأخيرة(١)، لاشك أن تلك الهزيمة الروحية هى التى يسرت فى نفوس المنهزمين تقبل هذا الفكر الغريب الذى لاأصل له فى دين الله ، ولايمكن أن يُتَقَبَّلَ فى دين الله . . وإلا فقد كان المسلمون ـ فى أيام قوتهم وتمكنهم فى الأرض ـ معتزين بدينهم ، لايقبلون تغييراً فى أصوله ، حتى لو عَصَوْا بعض أوامره وتعاليمه فى واقع حياتهم ، فالمعصية مع الإقرار شىء ، وإنكار الأمر من الأساس شىء آخر . .

ونريد هنا على أى حال أن نناقش الأمر مناقشة موضوعية، كما وعدنا فى مقدمة الكتاب ، بصرف النظر عن دوافع العلمانيين أو مواقفهم ، فتلك أمور تتعلق بأشخاصهم ، ونحن هنا نناقش أفكارهم .

* * *

كانت « العلمانية » كما رأينا فى الفصل السابق رد فعل لطغيان الكنيسة ، وأثرا من آثار التحريف الذى وقع فى دين بولس الذى أخذته أوربا على أنه دين الله . .

ولنُعِد فى اختصار أبرز سمات ذلك الدين ، التى كانت العلمانية فى نظر أوربا هى المخرج الوحيد منها :

دين أخروى يهمل الحياة الدنيا وعمارتها .

---

(١) اقرأ إن شئت فصل « خط الانحراف » وفصل « آثار الانحراف » من كتاب « واقعنا المعاصر » .

دين يحقّر الإنسان بدعوى تمجيد الله .

دين يحقّر الجسد بدعوى تخليص الروح .

دين يحارب العلم .

دين يحجر على العقل أن يفكر .

دين يؤمن بالثبات المطلق ـ على أنه مشيئة الله فى الأرض ـ فيحارب الحركة والنمو ومايصحبهما من تغيير .

وفوق ذلك كله طغيان الكنيسة الروحى والمالى والسياسى والعلمى والفكرى . . وفى كل اتجاه .

ثم لننظر فى دين الله ، ولنبحث فيه عن سمة من تلك السمات التى ألجأت أوربا إلى العلمانية لتتخلص منها .

فأما إنه دين أخروى يهمل الحياة الدنيا وعمارتها فالواقع التاريخى خير شاهد على عكس ذلك . فما تم من عمارةٍ للأرض ، وعمل دءوب فيها ، أوضح من أن يشار إليه ، بأى مقياس قسنا تلك العمارة وذلك العمل الدءوب .

فإذا كان مقياس العمارة هو بناء المدن ومد الطرق وتشييد المبانى وتيسير الخدمات فما أروع ما قام به المسلمون فى هذا الجانب . .

وإذا كان مقياسها « المؤسسات » والتنظيمات وحسن الإدارة والسهر عليها فالمدارس التى تقدم التعليم المجانى ، والمستشفيات التى تقدم العلاج المجانى ، والأوقاف الموقوفة على أعمال البر ، ودواوين الجيش ، ودواوين القضاء ، ودواوين المظالم ، ودواوين الحسبة ، وبيت المال وغيرها من المؤسسات والتنظيمات تغنينا عن الحديث .

وإذا كان مقياسها القيم الروحية والأخلاقية ، فهنا تنفرد العمارة الإسلامية للأرض بأنها هى التى قدمت حضارة لاتكتفى بالعمارة المادية للأرض ، إنما ربطت نشاطها المادى بالقيم الروحية ، فعملت للدنيا والآخرة فى آن واحد ، وأرضت مطالب الجسد ومطالب الروح فى آن واحد ، وكونت مجتمعًا امّحت فيه فوارق اللون واللغة والجنس ، واجتمع على العقيدة الواحدة التى تربط الجميع برباط الأخوّة فى الدين . . مجتمعًا فريدًا فى التاريخ .

وإذا كان مقياسها إحساس الإنسان بذاته ، واعتزازه بعمله ونشاطه ، وبأنه فرد فى

أمة ذات رسالة تؤديها لنفسها وللبشرية ، وانسياح الإنسان فى الأرض وبحثه فى مجاهلها، وحمله نور الهداية إلى أطرافها . . فقد قامت الأمة الإسلامية بذلك أروع قيام . . وكان نشاطها كله منبثقا من إيمانها بهذا الدين ، وممارستها له فى عالم الواقع فى شكل سلوك ووجدانات ومشاعر .

وإذا كان مقياسها التقدم العلمى فحدث عن ذلك ولاحرج . . وتكفى حضارة الأندلس شاهدا ، ويكفى المنهج التجريبى فى البحث العلمى شاهدًا، وتكفى علوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم الفقه وأصوله . . وكلها جهود ذاتية غير مسبوقة ، تفردت بها الأمة الإسلامية ، وأنتجت فيها فى قرون معدودة ما يغطى حقبًا من التاريخ !

* * *

وأما تحقير الإنسان بدعوى تمجيد الله . . فما من دين عظّم الله ومجده على استقامة فى المشاعر وفى السلوك وفى التصور وفى الأداء كما فعل الإسلام ، إذا قارناه بتصورات اليهودية المحرفة التى تصور الله سبحانه وتعالى كأنما هو بشر ذو نزوات ، وكأنما هو ـ فى بعض الأحيان ـ أعجز من البشر :

﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ (١) .

﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء . سنكتب ماقالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ (٢) .

وذلك فضلا عن ترهات التوراة فيما يتعلق بمقام الله ، مما تتقزز النفس من مجرد تصوره . .

وإذا قارناه كذلك بتصورات النصرانية المحرفة التى زعمت لله ولدا ، وأشركته معه فى الألوهية ، بل أشركت كذلك روح القدس (جبريل عليه السلام) معهما ليصير المجموع ثلاثة ، والثلاثة واحد . . آمين !!

ومع كل التعظيم الحق لله ، والتمجيد لذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فقد كرّم الله الإنسان ، ولم يعتبره خاطئا « خطيئة أزلية » تتحملها كل أجيال البشرية على السواء !!

---

(١) سورة المائدة [٦٤] .

(٢) سورة آل عمران [١٨١] .

قال تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ (١).

كرمه تعالى بأن سواه بنفسه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ (٢).

وكرمه بأن جعله خليفة فى الأرض :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ (٣).

وكرمه بأن علمه الأسماء كلها ، وميزه بهذا التعلم على الملائكة :

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال : ياآدم أنبئهم بأسمائهم . . ﴾ (٤).

وكرمه بأن أعطاه القدرة على التعلم بالقلم :

﴿ اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ (٥).

وكرمه بأن وهب له العقل المفكر ، ووكل لهذا العقل تدبر الوحى ، وفهم مراميه وتطبيقه فى واقع الحياة ، والاجتهاد فيما لم ينزل فيه نص ـ رحمة من الله غير نسيان :

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٦).

وكرمه بأن خلقه فى أحسن صورة ، ورزقه من الطيبات :

﴿ وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات . . ﴾ (٧).

وكرمه بأن لم يقهره على العبادة كغيره من المخلوقات ، بل منحه حرية الاختيار :

﴿ ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ (٨).

---

(١) سورة الإسراء [٧٠] .
(٢) سورة ص [٧١ ـ ٧٢] .
(٣) سورة البقرة [٣٠] .
(٤) سورة البقرة [٣١ ـ ٣٣] .
(٥) سورة العلق [٣ ـ ٥] .
(٦) سورة النحل [٧٨] .
(٧) سورة غافر [٦٤] .
(٨) سورة الشمس [٧ ـ ١٠] .

ولم يجعل عليه « خطيئة أزلية » يتجرع مرارتها على مر الأجيال ، بل تاب على صاحب الخطيئة الأصلى وعفا عنه :

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم ﴾ (١).

فإذا أخطأ أحد فعليه وحده وزر خطيئته لايحمله غيره :

﴿ ولاتزر وازرة وزر آخرى ﴾ (٢).

وإذا تاب من خطيئته فله كل التكريم :

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين ﴾ (٣).

* * *

أما تحقير الجسد لتخليص الروح فقد أشرنا فى الفصل السابق إشارة عابرة إلى الفارق فى هذا الشأن بين الإسلام وبين رهبانية النصرانية . . ونضيف هنا إلى تلك الإشارة أن الإسلام ينظر إلى دوافع الجسد على أنها فى ذاتها نظيفة ، وأن الله خلقها لتعمل وتؤدى مهمتها التى خلقت من أجلها لالتقتل ولا لتكبت . وإنما المستقذر هو الفاحشة . . أى تجاوز الحد الذى رسمه الله لكل دافع من تلك الدوافع . أما فى داخل تلك الحدود فهى ليست مباحة فقط ، بل مطلوبة ومرغوبة . والذى تقوم به التربية الإسلامية المستمدة من الكتاب والسنة ليس هو الكبت ، إنما هو الضبط ، وهو عملية صحية وإيجابية ، تقوى الإرادة ، وتحفظ الطاقة من التبدد ، ثم تستخدم فائض الطاقة ـ الذى يتوفر بعد عملية الضبط ـ فى عمل هو فى ميزان الإسلام أسمى الأعمال وأعظمها ، وهو الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ورد العدوان عن الإسلام والمسلمين .

وبذلك يأخذ الجسد مجاله الفطرى الطبيعى ، دون أن يهبط الإنسان إلى المستوى الحيوانى فى ممارسة المتاع الحسى ، وفى الوقت ذاته يجند الإنسان نفسه للقيم العليا ، التى تتوارى حتماً حين يغرق الإنسان فى المتاع الحسى ، أو تُقْتَل حتما حينما يَقْتُلُ الإنسان دوافعه الفطرية بدعوى تخليص الروح من ربقة الجسد !

* * *

(١) سورة البقرة [٣٧] . (٢) سورة الإسراء [١٥] .

(٣) سورة آل عمران [١٣٥ ـ ١٣٦] .

وأشرنا فيما سبق من هذا الفصل إشارة عابرة كذلك إلى موقف الإسلام من العلم . . ونضيف هنا أن الإسلام هو الذى دفع المسلمين إلى طلب العلم ، والتعمق فيه، والبحث الجاد فى مجالاته المختلفة . . وأن روح البحث العلمى سواء النظرى أو التجريبى ، لم تكن طبيعة فى هذه الأمة قبل إسلامها . إنما اكتسبتها الأمة من الإسلام حينما آمنت به ومارسته فى عالم الواقع . فقد بدأ الوحى ـ أول مابدأ ـ بالتوجيه إلى القراءة :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ (١) .

وتوالت الآيات تطلب من المسلمين التفكر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض وتخبرهم أن الله سخر للإنسان مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه ، وأن عليه أن يبذل جهده فى التعلم لتحقيق ذلك التسخير فى عالم الواقع .وأن القوة مطلب من مطالب هذه الأمة من أجل المحافظة على عقيدتها وكيانها ، ومن أجل منع الفتنة عن المسلمين ، والقوة لاتتأتى بغير العلم . . وقد أثمرت هذه التوجيهات الربانية ظهور المنهج التجريبى فى البحث العلمى على يد المسلمين حين كانوا مسلمين حقا، وبالمنهج التجريبى تقدمت العلوم تقدما هائلا ، ووضعت اللبنات التى يقوم عليها صرح التقدم العلمى فى الوقت الحاضر .

وأهم من ذلك كله أن التقدم العلمى عند المسلمين سار على وفاق كامل مع العقيدة، ولم يقع بينه وبينها ذلك الفصام النكد الذى وقع فى أوربا مرتين ، مرة فى ظل الدين الكنسى المحرف ، ومرة فى ظل العلمانية المنحرفة ، وفى المرتين شَقِيَ الإنسان بذلك الصراع المفتعل بين الدين والعلم ؛ بين نزعتين فطريتين فى داخل النفس، لاتصادم بينهما فى أصل الفطرة ولاتضاد!

* * *

أما الحجر على العقل فلم يقع قط فى ظل هذا الدين كما وقع فى دين الكنيسة المحرف . بل كان الدين هو الذى دعا إلى إعمال الفكر من أول الأمر : ﴿ قل : إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . مابصاحبكم من جنة!﴾ (٢) .

---

(١) سورة العلق [١ ـ ٥] .

(٢) سورة سبأ [٤٦] .

بل ندد بالذين لايتفكرون ، وامتدح الذين يقومون بالتفكر :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ؟! ﴾ (١).

﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ﴾ (٢).

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض : ربنا ماخلقت هذا باطلا ! سبحانك ! فقنا عذاب النار ! ﴾ (٣).

ولم تكن دعوة القرآن للناس مجرد دعوة إلى التفكر بلاهدف محدد ولاضابط ، إنما هى دعوة للبحث عن الحقيقة ، والاهتداء فى أثناء البحث بالدليل ، والتجرد من الهوى الذى يفسد الحكم ، والشعور بالمسئولية عن كل حكم يصدره الإنسان . . وتلك ـ فى عبارة مختصرة ـ هى أدوات المنهج العلمى فى البحث ، التى قامت عليها النهضة الفكرية الهائلة التى قدمها المسلمون للبشرية ،والتى بدأت أوربا نهضتها بالاقتباس منها والبناء عليها :

﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٤).

﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ (٥).

﴿ ولاتَقْفُ ماليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ (٦).

﴿ إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس . . ﴾ (٧).

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ (٨).

﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ (٩).

وفى ظل هذه التوجيهات أعمل المسلمون فكرهم فى كل مجالات البحث ، لايشعرون بالتناقض بين مقتضيات دينهم ومقتضيات فكرهم ـ إلا من شذ منهم بتأثير الغزو

---

(١) سورة محمد [٢٤] .
(٢) سورة الفرقان [٧٣] .
(٣) سورة آل عمران [١٩٠ ـ ١٩١] .
(٤) سورة النمل [٦٤].
(٥) سورة الأنعام [١٤٨] .
(٦) سورة الإسراء [٣٦].
(٧) سورة النجم [٢٣] .
(٨) سورة « المؤمنون » [٧١] .
(٩) سورة يونس [٣٢] .

الفكرى اليونانى أو شطحات الصوفية ، وهم قلة على أى حال فى خضم الإنتاج الفكرى الهائل الذى أنتجه المسلمون ـ ولم يكن هناك هيئة من « الإكليروس » تراقب أعمالهم لتقدمهم إلى محاكم التفتيش ، إنما كانت هناك ضمائرهم تحاسبهم لكى يقولوا الحق ولايحيدوا عنه ، وكان « الحق » الذى يمثله دينهم يملأ قلوبهم فيزيدهم قربامن الله كلما اكتشفوا جديدًا من العلم ، فكانوا كما قال الله عنهم :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾ (١) .

* * *

أما قضية الثبات والتغير ، فالمسلمون هم أساتذة هذا الفن . . فن الاجتهاد فى إطار النص ، والاجتهاد ـ فيما لانص فيه ـ فى إطار مقاصد الشريعة . .

إن هذا هو « الفقة الإسلامى » الذى أعطى منذ القرون الأولى تلك الثروة الهائلة التى ماتزال تنير الطريق للسالكين ، والتى تمثل ذخيرة صالحة للاستمداد منها مابقيت هذه الأمة فى الأرض ، بما وضعت ـ فى علم أصول الفقه ـ من قواعد لمواجهة كل جديد يجد فى حياة الناس . .

لقد أدرك المسلمون منذ اللحظة الأولى التى انقطع فيها الوحى بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنه لابد من الاجتهاد لمواجهةالظروف الجديدة التى لم يتنزل فيها بذاتها نص فى الكتاب أو السنة . فلم يضيقوا بالجديد ، ولم يقفوا أمامه حائرين ، وفى الوقت ذاته لم يتبعوا أهواءهم بغير ضابط ، بحثا عما يرون هم ـ بمجرد الهوى ـ أنه هو « المصلحة » التى يتحقق بها الخير . ذلك أنهم آمنوا ابتداء أن دين الله المتمثل فى كتاب الله وسنة رسوله صلى عليه وسلم هو الحق . وهو القسط . وهو « المصلحة » فى الدنيا والآخرة وأن فيه وحده الهدى ، إما بنص مباشر أو بقاعدة يستنبطون منها ، وأن مخالفة نصوصه أو مخالفة قواعده لاتأتى بخير ولا تتحقق منها مصلحة ، مهما بدا للإنسان بنظره ـ أى بمجرد هواه ـ أن الأمر غير ذلك . . وأنه لايحدث فى الأرض شىء لايكون له حكم فى كتاب الله . . (٢).

وآمنوا فى الوقت ذاته أن الحياة لايمكن أن تسير على وتيرة واحدة دون أن تجّد فيها

---

(١) سورة فاطر [٢٨] .

(٢) يقول الشافعى رحمه الله : « فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها » الرسالة للشافعى تحقيق الشيخ أحمد شاكر ص ٢٠ .

أحداث . وأنهم لايستطيعون ـ ولايستطيع بشر ـ أن يوقفوا الحياة عند نقطة معينة أو يضبطوها فى قالب معين لاتخرج عنه . . ولكن لاينبغى للتغير فى الوقت ذاته أن يخرج الناس عن الصراط الذى رسمه الله لهم فى وحيه المنزل . . إنما تتغير الحياة ، وتظل فى تغيرها محكومة بثوابت الوحى ، لكى لاتأسن من ناحية ، ولاتضل من ناحية أخرى وتنفلت بلا ضابط .

وهكذا كانت قضية الثابت والمتغير واضحة تماما فى أذهانهم ، وكانت هى الدافع الذى دفع الفقهاء إلى الاجتهاد ، وإلى الإيمان بأن الاجتهاد لايتوقف مابقيت الحياة .

* * *

إذا كان هذا دين الله الحق ، فى أصوله المنزلة من عند الله ، المحفوظة بحفظ الله لها ، كما هو فى التطبيق الواقعى الذى استمر عدة قرون ، وأضاء للدنيا كلها مسالك الطريق، قبل أن يتقاعس المسلمون عنه فى الفترة الأخيرة ، فينحسرا ويتقهقروا ويتخلفوا ويضعفوا . . فأى شىء فى هذا الدين يدعونا إلى نبذه وعزله عن الحياة ، واستبدال غيره به ليخرجنا منه ؟!

إنما يكون علاج ما نحن فيه من انحسار وتقهقر وتخلف وضعف ، أن نعود إلى منبع القوة الذى تقاعسنا عنه ، وإلى نقطة الانطلاق التى منحتنا من قبل الحياة والتقدم والازدهار . . وهو ما تحاوله الصحوة الإسلامية اليوم ، ونرجو أن تنجح فيه . .

حقًا هناك نقطة واحدة هى التى يتمسك به العلمانيون فى جدالهم كله ، ويركزون عليها ليدّعوا وجاهة دعواهم فى فصل الدين عن الدولة ، وهى وجود الاستبداد السياسى على فترات متطاولة من تاريخ المسلمين .

ووجود الاستبداد السياسى على فترات من تاريخ المسلمين حقيقة واقعة دون شك . . ويجب أن نكون صرحاء مع أنفسنا ، وتكون لدينا الشجاعة الكافية ، والولاء الكافى للحق الربانى لنقرّ بوجود هذه السلبية فى الواقع التاريخى للمسلمين . فهذه أمانة تؤدى لله عز وجل :

﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولوعلى أنفسكم أو الوالدين والأقربين . . ﴾ (١) .

---

(١) سورة النساء [١٣٥] .

حقيقة إن التاريخ السياسى للمسلمين ليس ظلامًا كله كما يدعى أعداء هذا الدين لينفرّوا أهله منه ، وليخذّلوا الصحوة الإسلامية عن محاولة العودة إليه . . وإن فى هذا التاريخ ـ فيما بعد فترة الخلافة الراشدة المجمع على مثاليتها ، وارتفاعها على كل ماعرفته البشرية من النماذج فى القديم والحديث ـ نماذج كثيرة من العدل السياسى ، وأخلاق الحكم الرفيعة ، وشعور المحكومين بالرضى والطمأنينة ، والتمتع بالأمن والاستقرار . .

ولكن وجود الاستبداد السياسى يبقى مع ذلك حقيقة واقعة ، وحقيقة بارزة فى التاريخ السياسى للمسلمين .

ولكن الضجة التى يثيرها العلمانيون حول هذه النقطة تحمل عدة مغالطات تحتاج إلى بيان ، لتوضيح الحقيقة فيها ، وإزالة الغبش الكثيف الذى يثار حولها . .

إنها ـ كما قال علّى رضى الله عنه ـ كلمة حق أريد بها باطل !

وأول هذه المغالطات وأبرزها أن الاستبداد السياسى نتيجة حتمية للحكم « الدينى » وأن ماحدث فى تاريخ المسلمين هو نفسه ما حدث فى تاريخ « الحكومة الثيوقراطية » فى أوربا ، ولذات السبب الذى أحدثه هناك ،وهو استناد الحكام إلى قداسة الدين وممارسة الاستبداد باسم شيء مقدس له على نفوس الناس سلطان ، واعتبار المعارضين لأولئك الحكام خارجين على الدين ذاته مما يسوغ اضطهادهم وقهرهم والفتك بهم دون أن يحميهم من الطغيان حامٍ !

وهذه المغالطة الكبرى تشتمل هى ذاتها على عدة مغالطات . .

فليس فى الإسلام أصلا حكومة « ثيوقراطية » ولايمكن أن يكون فيه ، لأنه ليس فى الإسلام ابتداء هيئة تسمى « رجال الدين » !

وقد مرّ بنا فى الفصل الأول أن « الكنيسة » كانت بدعة مبتدعة لم يتنزل بها من عند الله سلطان ، ولا سند لها إلا هذه القولة المنسوبة للمسيح عليه السلام ، والتى لايمكن أن تصدر عنه فى الحقيقة ، وهو رسول مرسل من عند الله ! ومن ثم فدين الله الحق بريء من تلك البدعة التى أفسدت حياة أوربا وأذاقتها الويلات . .

و « الحكومة الثيوقراطية » كما عرفتها أوربا لم تكن حكومة تحكم بما أنزل الله ـ وليتها كانت ! ـ إنما كانت ـ كما يعرف مؤرخو أوربا ـ حكومة « رجال الدين » ، تحكم لا بالدين ، ولكن باسم الدين ! وتفرض سلطانها على الأباطرة والشعب باسم ذلك الدين ! أما الشريعة التى كانت تحكم الناس فى ظل الحكومة الثيوقراطية فقد كانت هى

القانون الرومانى ، ولم يكن لها علاقة البتة بالشريعة المنزلة عليهم من عند الله والتى كان المفروض أن يلتزموا بها ، وهى الواردة فى التوراة مع التعديلات الواردة عليها فى الإنجيل :

﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهدَاء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾(١).

﴿ ومصدقًا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (٢).

إنما بقيت الشريعة المنزلة طوال حكم « الحكومة الثيوقراطية » قيمًا أخلاقية يتقيد بها الأتقياء ورعًا من عند أنفسهم فلا يزنون ولايسرقون ولايقتلون ولايغشون ولايرابون . . إلخ ، ولكنها ليست شريعة مطبقة يعاقب من خرج عليها بمقتضى النصوص الواردة فيها ، إنما كان القانون الرومانى ـ قانون قيصر ـ هو الذى يحدد الجريمة ويحدد العقاب! وأما سلطان « رجال الدين » على الأباطرة فلم يكن لإلزامهم بتنفيذ الشريعة المنزلة ـ وليته كان ! ـ ولا كان سلطانهم على « الشعب » لإجراء أحكام الشريعة عليهم . . إنما كان لإخضاع هؤلاء وهؤلاء لسطوتهم الذاتية ، التى عن طريقها يكتنزون بالمال السحت الذى ينهبونه من الأباطرة ومن الشعب ، ويعفون أنفسهم من الضرائب التى يلتزم بها الآخرون ، ويسخّرون الناس لخدمتهم بغير أجر ، ثم يزدادون طغيانا فيحجرون على أفكار الناس وعقولهم ، ويخنقون أرواحهم باسم الدين !

﴿ ياأيها الذين آمنوا إن كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . . ﴾(٣) .

---

(١) سورة المائدة [٤٤ ـ ٤٧] .

(٢) سورة آل عمران [٥٠] .

(٣) سورة التوبة [٣٤] .

فأين هذا من التزام الحكام فى الإسلام بتطبيق شريعة الله ؟!!

إن حكومة أبى بكر رضى الله عنه ومن بعده لم تكن حكومة « ثيوقراطية » . . إنما كانت حكومة تحكم الناس بما أنزل الله ، وتطبق شريعته ، سواء منها مانزل فيه نص أو ما اجتهد فيه المجتهدون فى إطار النصوص .

أم إنه كما يقول المثل الشعبى « كله عند العرب صابون » ؟!! [1] .

إن الغلطة من الأصل هى محاولة وضع الإسلام وتطبيقاته على ميزان التجربة الأوربية، واستخدام المصطلحات الغربية ذات الدلالات المحلية البحتة ، كأنها اصطلاحات « إنسانية » أو عالمية ، تصلح للتطبيق على أى شىء وفى أى مكان ، دون نظر إلى الفروق الجوهرية بين التجربة التى تمت فى ظل الدين المزيف ، والتجربة التى تمت فى ظل الدين الحق ، وبين الاصطلاحات التى صنعها البشر فى ظروف معينة والمصطلحات التى أنزلها الله لتحكم الحياة ، أو اجتهد المجتهدون بها وهم ملتزمون بما أنزل الله .

* * *

والمغالطة الثانية أن « رجال الدين » الذين أقاموا « الحكومة الثيوقراطية » فى ظل النصرانية المحرفة كانوا « طبقة مقدسة » تستمد قداستها الزائفة من ذلك النص الذى نسبوه للمسيح عليه السلام وهو منه براء ، والذى زعموا فيه أن المسيح أعطى حق الحل والربط لحواريّه بطرس ، وهذا أعطاه بدوره لآباء الكنيسة من بعده ، وأن ماربطه بطرس ـ وخلفاؤه من بعده ـ فى الأرض لايحل فى السماء ، وماحله فى الأرض لايربط فى السماء . أى إنهم زعموا أن الأرض تحكم السماء ، والبشر يحكمون قدر الله ومشيئته . . وهو كفر بواح . بينما أبو بكر رضى الله عنه ومن خَلَفَهُ من الحكام لم يكونوا طبقة معينة، ولم يكن لهم حق التشريع من عند أنفسهم ، ولم تكن لهم قداسة ذاتية يتسلطون بها على رقاب الناس مستمدة من « الحكم الدينى » تزعم لهم العصمة ، وتجعلهم وسطاء بين العباد وربهم ، رِضَى الله مرتبط برضاهم ، وغضبه مرتبط بغضبهم ، وبيدهم مفاتيح الجنة والنار ! إنما وقع الاستبداد السياسى ـ حين وقع ـ على محور آخر سنتحدث عنه بعد

---

(١) مثل شعبى يقال لمن يأخذ الأشياء بمظهرها الخارجى ولايفطن إلى مابينها من فروق تمنع الجمع بينها فى إطار واحد وإن تشابهت فى المظهر . . وإذا طبقناه على العلمانيين ودعاواهم نقول : كله عند العلمانيين حكم باسم الدين !

هنيهة ، لاعلاقة له بحق موروثٍ عن خليفة الرب (نستغفر الله) يحل به الحاكم مايشاء، ويحرّم مايشاء ، ويدخل فى رحمة الله من يشاء ، ويحرم منها من يشاء ! وقد كان الذين يقع عليهم الظلم من قِبَل أولئك الحكام المستبدين يقاومونه أحيانا ويُقْهَرون عليه أحيانا ، وفى حسبهم أنه ظلم لايرضى الله عنه ولايقره ، وأن الله سيحاسب أولئك الحكام الظلمة على ظلمهم يوم القيامة ويستخلص لهم حقهم منهم على رؤوس الأشهاد ، وأنهم مهما ادعوا لظلمهم من مبررات « المصلحة » فلن يحميهم من الله حام. وما أبعد الشقة بين ظلم مغضوب عليه من الله والناس ، وظلم مقدس مبارك يُزْعَم له الرضى من الله ، ويطلب من الناس الرضى به باسم الدين !

* * *

والمغالطة الثالثة أن الاستبداد باسم الدين لم يكن هو الاستبداد الوحيد الذى حدث فى التاريخ الأوربى وغير الأوربى حتى يكون علاجه إقصاء الدين عن الهيمنة على واقع الحياة !

إن الأباطرة والملوك والأمراء الذين استبدوا بالناس فى أوربا حتى جاءت الثورة الفرنسية فأقصتهم عن سلطانهم ، وأقصت رءوسهم عن أجسادهم لم يكونوا يَرْتَدُون زى الدين ! بل كانوا ثائرين على الكنيسة الممثلة للدين ، مناوئين لها ، عاملين على الخروج من سلطانها . . ووصل الأمر بالامبراطور الألمانى هنرى الرابع الشهير فى التاريخ أن خلع البابا « هلد براند » من منصبه ، فى حركة تحدٍّ محمومة ،انتهت به إلى التراجع والاعتذار وطلب المغفرة من البابا ، والوقوف ببابه عارى الرأس حافى القدمين فى الجليد المتساقط ثلاثة أيام بلياليها ، حتى عفا عنه « قداسة البابا» وأعاده إلى «الحظيرة» . . حظيرة الرضى والغفران ! وإن كان قد كتب بعمليته الانتحارية هذه أول سطر فى صفحة التمرد على سلطان الكنيسة ، التى انتهت بفصل السلطة الزمنية عن السلطة الروحية وحصر نفوذ البابا فى السلطة الروحية وحدها ، وانتزاع السلطة الزمنية للأباطرة والملوك والأمراء ! (١) .

إنها قصة الأباطرة الذين حكموا «بالحق الإلهى المقدس » أنهم قالوا فى أنفسهم : إذا كان البابوات قد زعموا لأنفسهم حقا إلهيًا مقدسًا استبدوا به علينا وأخضعونا له ، فلنزعم لأنفسنا حقا مماثلا ، ولنسنده لذات الجهة التى استندوا إليها !! ثم طلعوا على

---

(١) راجع قصته الطريفة فى أى مرجع من مراجع التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى .

الناس بدعوى مفادها أن الله هو الذى عهد إليهم أن يحكموا الناس ، ومن ثم فإنهم يحكمونهم بذلك الحق الإلهى المقدس ، وعلى الناس أن يخضعوا لهم فى شئون دنياهم كما يخضعون للبابوات فى شئون آخرتهم سواء بسواء !

أفيعتبر هذا حكما «دينيا» واستبدادًا باسم الدين ، وهو حكم يناوئ الدين ويستقل عنه بسلطانه ، ويسعى بكل الوسائل لتقليص نفوذه وحصره فى نطاق محدد ؟! وهل تعالج هذه الحالة بفصل الدين عن الدولة ؟ أم قصارى ذلك أن يكون استبدال طغيان بطغيان ؟! .

﴿ أم على قلوب أقفالها؟! ﴾ (١) .

ولنترك التاريخ الأوربى ووقائعه ، ولننظر فى تاريخنا نحن الحديث . .

هل هؤلاء « العسكر » الذين مارسوا أبشع ألوان الطغيان السياسى ، وارتكبوا من الفظائع فى السجون والمعتقلات ما لامثيل له حتى فى عالم الوحوش . . هل هؤلاء كانوا يحكمون باسم الدين ؟! أم كانوا « علمانيين » يهدفون إلى محو الدين وإبادة أهله ، ويتتلمذون فى حركتهم على الحكم الشيوعى الذى قام أساسا لتأسيس الإلحاد ومحو الدين من الأرض ؟! (٢) .

أفبعد هذه النماذج الصارخة يزعم العلمانيون أن الدين هو سبب الطغيان السياسى ، وأنه لاعلاج لذلك الطغيان إلا بفصل الدين عن الدولة ، وإقامة الحكومة العلمانية ؟!

* * *

سيقول العلمانيون : مالنا ولهذا الجدل كله ؟ لقد وقع الاستبداد السياسى فى تاريخ المسلمين ، واستخدم الدين لإعطائه صبغة شرعية ، وتخذيل المعارضين عن مقاومته . . فلابد لنا من إقصاء الدين عن السياسة ، ليرتاح الناس ـ أحرار الفكر ـ من الطغيان باسم الدين !

---

(١) سورة محمد [٢٤] .

(٢) كان معظم هؤلاء العسكر عملاء لأمريكا وإن تظاهروا بأنهم أصدقاء لروسيا وأعداء لأمريكا ! فقد كانت هذه اللعبة ذاتها ـ لعبة التظاهر بعداء أمريكا ـ جزءًا من الخطة المتفق عليها للضحك على الجماهير (انظر كتاب « لعبة الأمم » لمؤلفه « مايلز كوبلاند ») ثم إنهم كانوا كلهم ـ سواء تحيزوا لهذا المعسكر أو ذاك ـ عملاء للصهيونية العالمية التى كانت تحكم المعسكرين فى آن واحد ، وتسخرهما لحرب الإسلام !

ونقول : نعم ! وقع الاستبداد السياسى فى تاريخ المسلمين . . فكيف وقع ؟ ومادلالة وجوده ؟ وماطريقة علاجه ؟

ونسأل ابتداء : هل وقع الاستبداد بسبب الدين ؟!

الدين الذى قال منزله سبحانه : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ (١).

ويأمر بالعدل حتى مع الأعداء الشانئين : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ،اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (٢) . ويأمر بالعدل حتى مع اختلاف الدين : ﴿ . . . وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . . ﴾ (٣) . ويقول سبحانه فى الحديث القدسى : «ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم فلاتظالموا . . »(٤) .

أيمكن أن يكون هذا الدين سببا فى الظلم ؟!

كان العلمانيون فى مبدأ أمرهم يتهمون التطبيق الواقعى ولايتهمون الدين ذاته . . ثم تجرءوا بعد ذلك فصار بعضهم يتهم الدين ذاته بإيقاع الظلم على الناس . . وسنناقش فى الفصل القادم بعض دعاواهم التى يدّعونها فى هذا الشأن . إنما نحن فى هذا الفصل فى حوار مع « المعتدلين ! » من العلمانيين الذى يكتفون بإلقاء اللوم على التطبيق!

ويصر العلمانيون جميعًا ـ معتدلين ومتطرفين ـ على إبعاد فترة الخلافة الراشدة من دائرة النقاش ، بدعوى أنها فترة فريدة لم تكرر فى التاريخ ، فلا يؤخذ بها ،ولاتتخذ مقياسا للحكم الإسلامى . (٥) .

---

(١) سورة النساء [٥٨] . (٢) سورة المائدة [٨] .

(٣) سورة الشورى [١٥] . (٤) أخرجه مسلم .

(٥) يصل التبجح ببعض العلمانيين أن يتهموا عهد الخلافة الراشدة ذاته بالاستبداد السياسى ، مستشهدين بقول عثمان رضى الله عنه للذين طلبوا منه التنحى عن الحكم : « لاأنزع قميصا سربلنيه الله» فيقولون إن عثمان رضى الله عنه كان يحكم بالحق الإلهى المقدس الذى كان سند الطغيان السياسى فى أوربا ! وعثمان رضى الله عنه لم يقصد بهذه الكلمة إلا أن الله قدمرّ عليه بأن تولى الأمر عن رضا واختيارٍ حرٍّ من الأمة وأن الأمة لم تنزع ثقتها منه حتى يتنحى . وإنما المحتجون عليه ، المطالبون بتنحيته شرذمة قليلة لايمثلون رأى الأمة ، وهذه كانت الحقيقة ، بدليل حماية الصحابة لداره أثناء الفتنة . ولو كانوا يرون عزله لتركوه للثائرين عليه ، وإنما هم أخذوا عليه أشياء لاتؤدى فى نظرهم إلى عزله .

ونحن نقرهم على أنها فترة فريدة لم تتكرر ـ بصورتها الكاملة ـ فى التاريخ . ولكنا ـ من جهة أخرى ـ لن نكف عن الاستشهاد بها من أجل دلالتها ، لامن أجلها فى ذاتها . .

إن المزيه الكبرى لهذه الفترة أنها شهدت التطبيق الكامل لهذا الدين . ومن ثمّ فهى صورته الحقيقة مطبقة فى عالم الواقع .

ولهذا الأمر دلالتان اثنتان على الأقل . الأولى أن هذا الدين ليس مثاليات معلقة فى الفضاء غير قابلة للتطبيق فى عالم الواقع ، مادام قد أمكن تطبيقها بالفعل . . والثانية أنه مادام الذين طبقوها كانوا بشرا ـ لاملائكة ـ ففى طوق البشر إذن أن يطبقوها فى أى فترة من فترات التاريخ إذا عزموا على ذلك وأجمعوا أمرهم عليه . وقد وجدت بالفعل نماذج غير قليلة من التطبيق الصحيح لهذا الدين على مدار التاريخ . فلا شىء يمنعنا اليوم من محاولة ذلك . ولن يكون « الدين » هو العائق لنا إذا حاولنا ، بل سيكون الدين ـ بأصوله المنزلة ، وصوره المشرقة حين طبق تطبيقًا صحيحًا ـ هو الدافع والحافز والمعين .

لم يكن الدين إذن هو سبب الطغيان (وسنرجئ النقاش مع متطرفى العلمانيين إلى الفصل القادم) إنما كان السبب سوء التطبيق .

ولكن سنسلم ـ توفيرًا للجدل ـ بأن الدين استخدم فى بعض العهود ستارًا للاستبداد السياسى . وأن « علماء السلطة » استخدموا الدين لمساندة الطغيان السياسى وإضفاء صفة القداسة عليه ، وتخذيل « الجماهير » عن الخروج عليه أو المطالبة بتغييره . . سنسلم بهذا على الرغم من النماذج البارزة التى وعاها التاريخ من قيام علماء أعلام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتصدى لظلم الحكام ـ وإن أوذوا فى سبيل ذلك وسجنوا وعذبوا ـ وقيام قضاة بإصدار أحكام ضد الحكام أو ضد من يلوذون بهم ممن يستغلون جاههم فى إيقاع الظلم بالناس . . ولعل من أروع تلك النماذج مافعله العز بن عبد السلام من تهديد المماليك ـ الحكام ـ ببيعهم فى الأسواق ، والإنفاق من ثمن بيعهم على الجهاد فى سبيل الله إن لم يقوموا هم بالجهاد والإنفاق عليه من أموالهم !

فما الذى نستخلصه من أحداث ذلك التاريخ الذى وقع فيه الاستبداد السياسى ؟

نستخلص مجموعة من الحقائق . .

الحقيقة الأولى أن « الدين » لم يردع هؤلاء الحكام عن الظلم ، وكان ينبغى أن يردعهم عنه . . أما القول بأن هذا الظلم نشأ عن وضع دينى يشبه وضع « الحكومة الثيوقراطية » فى تاريخ النصرانية فهو قول لاسند له من الواقع . فعصيان الحكام لأوامر الدين شىء - ولاينشأ الظلم أساسا إلا من عصيان أوامر الدين - ووضع التشريعات الظالمة باسم الدين أمر آخر ، لايتعلق بالتطبيق ولكن بحق التشريع . فأما المعاصى فهى التى وقعت من حكام المسلمين ، وهم يتحملون وزرها ولاشك ، وأما التشريعات الظالمة فهى التى وقعت من الحكومة الثيوقراطية التى أعطت نفسها حق الهيمنة الكاملة على أموال الناس وأرواحهم وأفكارهم وعقائدهم ومعلوماتهم وحصائد ألسنتهم ، بل خطرات نفوسهم التى لم ينطقوا بها وأكنّوها فى صدورهم !

والحقيقة الثانية أن ذلك الاستبداد السياسى وجد سندًا من « علماء السلطة » وكان واجبهم أن يقفوا فى وجهة ويقوموه بدلاً من أن يساندوه . وتلك معصية أخرى لأوامر الله ورسوله أنذر الله أصحابها فى الكتاب المنزل بالعذاب الأليم :

﴿ إن الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ، ولايكلمهم الله يوم القيامة ولايزكيهم ، ولهم عذاب أليم ﴾ (١) .

والحقيقة الثالثة التى هى فى نظرنا أهم هذه الحقائق جميعاً هى أن الأمة قد فرطت فى دينها يوم استكانت للاستبداد السياسى ولم تقاومه ، وتركته حتى رسخ فى أرض الواقع ، وأصبح كأنه أصل من الأصول !

لا الله أمر بذلك ، ولارسوله صلى الله عليه وسلم .

صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شدد على عدم الخروج المسلح على الحاكم الذى يلتزم بشريعة الله ، ولكنه يجور فى التطبيق ، مخافة الوقوع فى الفتنة التى يفوق ضررها جور الحاكم . . ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بالرضى بهذا الجور أو السكوت عليه :

« مامن نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لايفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » (٢) .

---

(١) سورة البقرة (١٧٤) .   (٢) أخرجه مسلم .

« إنه يستعمل عليكم أمراء ، فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، **ولكن من رضى وتابع** »[1] .

« من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[2] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة » قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال: «لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم »[3] .

ونستخلص من ذلك كله عبرة أخيرة هى لب الموضوع . .

إذا كانت هذه الأمة لسبب من الأسباب قد فرطت فى الضمانات الربانية التى يكفلها لها دين الله المنزل ، الذى تدخل بطاعته الجنة ، ويعّرضها التفريط فيه لعذاب النار، فضلا عما يصيبها فى الحياة الدنيا من ذل وانكسار وبوار . . إذا كانت قد فرطت فى تلك الضمانات الربانية لسبب من الأسباب ، فهل فصل الدين عن السياسة هو الذى سيجعلها تحرص على حقوقها وتمارسها فى عالم الواقع ؟!

وهذه تجربة الحكم العلمانى الذى غرقت فيه الأمة خلال قرن من الزمان أو أكثر . . كم من المظالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ارتكبت فيه ؟! فأين ذهبت ضماناته؟! ومتى حرصت الأمة على حقوقها بعد تنحية الحكم بشريعة الله ، والحكم « بالدساتير » المجلوبة من الغرب ؟!

إن العبرة التى تستخلص من تاريخ هذه الأمة أنه حدث نقص هائل فى التربية السياسية للأمة ، ترتب عليه تفريطها فى حقوقها التى كتبها الله لها فى دينه المنزل ، بل جعلها واجبًا عليها ، وجعلها من مقتضيات لاإله إلا الله ، وأن التربية السياسية على الأصول الإسلامية التى أقامتها الخلافة الراشدة لم تواكب التربية الروحية والفكرية والخلقية والجهادية التى ركز العلماء والمربون عليها أكثر من التربية السياسية حتى فى فترات الازدهار ، فضلا عن فترات الانحسار!

وليس العلاج لذلك هو فصل الدين عن الدولة ، وإخراج السياسية من الدين !

فالأمة التى فرطت فى دين الله وضماناته ، لن تحرص على الضمانات التى تحملها الديمقراطية أو غيرها من نظم الحكم البشرية ، ومن السذاجة المفرطة أن يظن أحد غير

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه الشيخان .

(٣) أخرجه الشيخان .

ذلك . فإنه لايوجد نظام ـ بشري أو رباني ـ يحمل ضماناته بصورة آلية ، إنما تعمل الضمانات من خلال البشر الذين يؤمنون بها ، ويتربون على ممارستها فى عالم الواقع ، وعلى عدم التفريط فيها ، حتى تصبح جزءًا من كيانهم الحيّ الذى يعيشون به . .

فإذا كان لابد من التربية فى كل حالة ، سواء كان النظام المطلوب تطبيقه بشريًا أو ربانيا ، وإذا كانت النظم ـ كل النظم ـ لاتؤتى ثمارها ولاتعطى ضماناتها إلا من خلال تلك التربية ، فما الذى يجعلنا نبذل الجهود المضنية ـ إن بذلناها حقا ! ـ فى نظام لايوافق عقيدتنا ، ولايرضى ربنا ، ونخسر فيه آخرتنا ، حتى لو فرضنا جدلا أننا نكسب فيه دنيانا ، بينما نحن ـ لو قمنا بالتربية على النظام الحق ـ نملك خير الدنيا والآخرة . . والجهد المطلوب فى التربية على النظام الحق هو ذات الجهد المطلوب للتربية على غيره ، بينما الثمرة خلاف الثمرة ، والمذاق غير المذاق ؟!

إنها لحماقة لايقدم عليها عاقل . . أن نتعب ونتعب ونتعب ، فى تجارة خاسرة فى نهاية المطاف :

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين ﴾(١).

بينما نحن نملك بذات الجهد أن نربح الكثير :

﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن . ذلك الفوز العظيم ﴾ (٢).

---

(١) سورة البقرة [١٦] .

(٢) سورة الصف [١٠ ـ ١٢] .

الديمقراطية والإسلام

سنناقش بحول الله فى هذا الفصل قضيتين أساسيتين . .

القضية الأولى هى أنه إذا كان هناك خلاف بين الديمقراطية والإسلام ـ وهو كائن بالفعل كما سوف نرى من البحث ـ فأى شىء يجب على المسلم ؟ يأخذ بالديمقراطية أم يطبق الإسلام ؟

بعبارة أخرى : هل يُعْرَض الإسلام على الديمقراطية لتقبل منه ما تقبل وترفض منه ما ترفض ؟ أم تعرض الديمقراطية على الإسلام ليقبل منها ما يقبل ويرفض منها ما يرفض ؟

والقضية الثانية : هل يصلح النموذج الأوروبى ـ أى النموذج العلمانى ـ ليكون منهجا لحياتنا ، ولحياة البشرية ؟ وإذا لم يكن يصلح فما البديل ؟!

* * *

لعل القضية الأولى واضحة :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾(١)

ولكن لأن الجدل يدور حولها فى غربة الإسلام الثانية فنحن نناقشها مع الذين يجادلون فى أمرها ، كما كان القرآن يناقش غبش التصورات الفاسدة فى العقيدة والعبادة والتشريع فى الجاهلية الأولى .

إن كون الشريعة ملزمة للمسلم الذى ينطق بفمه شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » (ولو كان ينطقها نفاقا !) ، وكون التشريع بغير ما أنزل الله مخرجاً من الملة ، قضية مجمع عليها من علماء الأمة جميعا ، لم يشذ أحد عنها ، ولا يجرؤ أحد أن يشذ !

---

(١) سورة الأحزاب[٣٦] .

وهى قضية مختلفة فى بعض جوانبها عن قضية الحكم بغير ما أنزل الله ، لذلك لزم التنويه إليها . .

ليس كل من يحكم بغير ما أنزل الله خارجا من الملة . . فقد يكون متأولا ، وقد يكون مخطئا فى اجتهاده ، وقد يكون عاصيا آثما كالقاضى الذى يرتشى ويحكم فى القضية التى بين يديه بغير ما أنزل الله .

ولكنه حين يشرع بغير ما أنزل الله (أى يحل ويحرم بغير ما أنزل الله) فهو خارج من الملة بإجماع . .

* * *

لقد جعل الله المحك الذى يكشف نفاق المنافق ويخرجه من الإيمان الإعراض عن شريعة الله . .

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون » (١)

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾(٢) . . ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ (٣) .

ففى الآيات الأولى قوم يزعمون الإيمان بالله ورسوله ، ويزعمون فوق ذلك أنهم مطيعون لله ورسوله (وورد فى آيات أخرى فى سورة النساء أنهم يؤدون الشعائر كذلك وإن كان على كسل وتراخ(٤)) ثم يُدْعَوْن إلى شريعة الله ليتحاكموا إليها فيعرضون عنها ويطلبون التحاكم إلى غيرها ، فينفى الله عنهم الإيمان نفيا باتا : « وما أولئك بالمؤمنين » ثم يبين الله موقف المؤمنين من هذا الأمر ، وهو أنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى شريعة الله يقولون « سمعنا وأطعنا » ويسارعون إلى التنفيذ .

---

(١) سورة النور [٤٧ ـ ٥١]   (٢) سورة النساء [٦٠]   (٣) سورة النساء [٦٥] .

(٤) قال تعالى « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » [سورة النساء : ١٤٢] .

وفى الآيات الثانية قوم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو وهو الوحى المشتمل على شريعة الله فى الكتاب والسنة ، وما أنزل من وحي قبل ذلك ، ثم هم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الذى أمروا أن يكفروا به (والطاغوت كما قال ابن جرير الطبرى رحمه الله فى تفسيره : « كل ذى طغيان على الله فعبد من دونه ، إما بقهرمنه لمن عبده ، وإما بطاعة ممن عبده له ، إنساناً كان ذلك المعبود ، أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شىء » [1] ويبين سبحانه وتعالى أنهم بذلك خارجون من الإيمان ، وأنهم لايؤمنون حتى يحكموا شريعة الله راضية بها نفوسهم ، مطمئنة بها قلوبهم ، عالمين أنها هى الخير ، وهى الحق ، وهى الصراط المستقيم . .

ويلاحظ التشديد الواضح فى عبارة الآية الكريمة بالقسم مع النفى « فلاوربك لا يؤمنون . . » والتوكيد الذى تتضمنه لفظة « ثم » « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت » والتوكيد بعد ذلك بالمفعول المطلق « ويسلموا تسليما » . . وكل ذلك لإظهار بشاعة الجريمة التى يرتكبها هؤلاء بإرادتهم التحاكم إلى غير شريعة الله . . وبيان أنها قضية تتصل بأصل العقيدة ، لأن الإيمان منفى بتاتاً عن مرتكب ذلك الجرم الشنيع . وقد سبق أن بينا فى الفصل السابق أن التشريع بغير ما أنزل الله هو أحد جذور الشرك الثلاثة الكبرى ، يتساوى فى جرمه مع اعتقاد آلهة أخرى مع الله ، وتوجيه شىء من العبادة لغير الله .

ولو أن هؤلاء استسلموا لشريعة الله على كره فى دخيلة نفوسهم وريبة فإنهم لا يحققون « الإيمان » الذى يتطلبه الله من عباده ويدخلهم به جنته ، ولكنهم ـ فى الدنيا ـ يعتبرون مسلمين بحسب الظاهر من أمرهم كما قال الله عن الأعراب : ﴿ قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا . ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ﴾ [2] ولكنهم وقد أظهروا إرادتهم التحاكم لغير شريعة الله فقد انتفى عنهم الإيمان والإسلام كلاهما ويطبق عليهم حد الردة فى الدولة المسلمة التى تحكم بما أنزل الله . فإن أرادوا أن يتوبوا ويدخلوا فى الإيمان الحق ، فقد وجب عليهم أن ينفذوا الشروط الواردة فى الآية بحذافيرها ، وهى التحاكم إلى شريعة الله عن رضا وتسليم واقتناع .

تلك هى القضية فى وضوحها وبساطتها . . وقد كانت بهذا الوضوح وهذه البساطة طوال ثلاثة عشر قرنا من حياة المسلمين ، لم يجادلوا فيها ، ولم يتصوروا قط أن المسلم

---

(١) تفسير الطبرى ، تحقيق محمود شاكر ٥/ ٤١٩ الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر .
(٢) سورة الحجرات [١٤] .

يمكن أن يُحَكَم بغير ما أنزل الله من ناحية التشريع ، وإن كانت المخالفات فى التطبيق قد حدثت ـ فى سياسة الحكم خاصة ـ وأنكرها المنكرون باليد أو اللسان أو القلب . أما التشريع بغير ما أنزل الله فلم يحدث فى التاريخ الماضى سوى مرة واحدة حين حكم التتار ـ قبل أن يستقروا على الإسلام الصحيح ـ أى بدستور من صنع البشر ، فحكم عليهم العلماء بالكفر الصريح حتى يرجعوا عنه ، ويحكُموا بشريعة الله وحدها ، لايحكِّمون سواها فى قليل ولا كثير .

يقول ابن كثير رحمه الله فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ :

« ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأهوائهم وآرائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان الذى وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير »[1] .

ولكن الواقع المعاصر جاء بانحرافين خطيرين ، من أخطر ما مر بالمسلمين فى حياتهم : تنحية الشريعة عن الحكم من ناحية ، ووجود « علمانيين » يتبجحون برفض شريعة الله ، ويناوئون الذين يطالبون بالعودة إلى تحكيم شريعة الله !

ولقد جاء هؤلاء العلمانيون ثمرة للغزو الفكرى الذى اجتاح حياة المسلمين حين فرغت نفوسهم من حقيقة الإسلام ، وأصبح الدين فى حياتهم « تقاليد » خاوية بغير روح ، فاكتسحها الغزو الفكرى اكتساحا ، وأجلاها من مواقعها ، ووضع فى مكانها فكراً دخيلاً ما أنزل الله به من سلطان .

قلت فى أكثر من كتاب[2] إن الهزيمة العسكرية التى أصابت المسلمين أمام قوى

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج٢ ص٦٨ .

(٢) انظر ـ إن شئت ـ على سبيل المثال كتاب « واقعنا المعاصر » فصل « خط الانحراف » وفصل « آثار الانحراف »

الغرب الظافر الكاسح ، لم تكن وحدها التى أثرت فى كيان المسلمين وجعلتهم يتقبلون الغزو الفكرى ، ويتشككون ـ لأول مرة فى حياتهم ـ فى قيمهم الدينية ، وشريعتهم الربانية ، وأخلاقياتهم وأنماط سلوكهم ، ويستبدلون بها أفكار أوروبا وقيمها وتصوراتها . إنما المسئول الأول عن ذلك هو الخواء العقدى الذى آل إليه المسلمون فى العهود الأخيرة بسبب ما أصاب عقيدتهم من أمراض وانحرافات خلال القرون . .

لقد علّم الله المسلمين فى كتابه المنزل ألا يهنوا ولا يحزنوا ولو أصابتهم الهزيمة العسكرية أمام أعدائهم . ما داموا مؤمنين :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (١)

وقد وعوا الدرس فلم يهنوا ولم يحزنوا حين انهزموا أمام التتار وأمام الصليبيين هزائم ساحقة ، بل تجمعوا ، وجمعوا عزيمتهم ، وردوا الكرة عليهم ، وكانوا فى أثناء ذلك كله يحتقرونهم ويشمئزون من كفرهم وشركهم وفساد أخلاقهم وأنماط سلوكهم ، لأن جذوة الإيمان كانت ما تزال حية فى القلوب . .

أما فى المرة الأخيرة فقد أثرت الهزيمة العسكرية هذا التأثير الهائل ، لأنها لم تكن وحدها ، بل صحبتها هزيمة روحية أمام « الحضارة الغربية » نشأت من الشعور بالإفلاس الحضارى من جانبهم . . وقد كان هذا الإفلاس حقيقة واقعة ، ولكن سببه لم يكن « الدين » كما ظن المنهزمون فى وهلة الهزيمة ، إنما كان هو الخواء العقدى الذى جرّد العقيدة من نتاجها الحىّ : الحضارى والفكرى والعلمى والسياسى والحربى . .

ولأول مرة فى حياة المسلمين سعى « المثقفون » ، الذين يفترض فيهم أنهم قادة الأمة ، إلى محاولة إبعاد الأمة عن كل ما يتصل بدينها وتراثها وعقيدتها وشريعتها ، لينطلقوا فى وهمهم إلى الحياة والقوة والتقدم والرقى ! وقام فيهم من يجادل لا فى وجوب الالتزام بتطبيق الشريعة ، بل فى حق الله سبحانه وتعالى فى التفرد بالحاكمية والتشريع ، الذى هو ـ فى زعمهم ـ حق خالص « للأمة » مصدر السلطات . . لايشاركها فيه أحد . . حتى الله ! نستغفر الله . .

* * *

فى كتاب « حول تطبيق الشريعة » ناقشت بعض الدعاوى التى يثيرها العلمانيون فى فصول تحمل هذه العناوين : « هل تنفصل العقيدة عن الشريعة فى دين الله ؟ » « هل

---

(١) سورة آل عمران [١٣٩] .

لولى الأمر أن يتصرف فى أحكام الشريعة بحسب الأحوال » « شبهة التطور وعدم صلاحية الشريعة للأحوال المستجدة » « شبهة تعارض أحكام الشريعة مع مقتضيات الحضارة الحديثة ووجوب الأخذ بمعايير الحضارة دون الشريعة » « شبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة بسبب وجود الأقليات غير المسلمة » « شبهة عدم إمكان تطبيق الشريعة بسبب الدول العظمى وضغطها على العالم الإسلامى » .

وفى الندوات الأخيرة التى أقيمت بين العلمانيين والإسلاميين أثار العلمانيون بعض الدعاوى التى لم يرد ذكرها فى كتاب « حول تطبيق الشريعة » لا تقل سخفاً عنها وبعداً عن الموضوعية و « العلمية » ، نتعرض لأبرزها فى هذا الفصل ، لا لأنها تستحق الرد فى ذاتها ، ولكن لبيان عدم موضوعيتها ، وبيان جانب المغالطة فيها . . وإذا كان القرآن الكريم قد ورد فيه الرد على دعوى اليهود بأن يد الله مغلولة ، وأن الله فقير وهم أغنياء ، على كل ما فى الدعوى من جهل وسخف وتوقح على مقام الألوهية ، فلا بأس علينا أن نبين مدى بُعد دعاوى العلمانيين عن الجدية اللازمة « للبحث العلمى ! » ومدى بعدها عن الصواب .

من تلك الدعاوى أنه لاشىء فى الواقع يسمى « تطبيق الشريعة » ! فالذى يطبق بالفعل ليس هو الشريعة الربانية ، إنما هو فهم البشر للنص الوارد فى الشريعة ، ومن ثم فهو تشريع بشرى فى الحقيقة ! ولكنه ـ رغم بشريته ـ يزعم لنفسه قداسة مستمدة من الوحى الربانى ! ويهدد بهذه القداسة من يعارضه فيتهمه بأنه خارج على الدين ! بينما التشريع البشرى الخالص ، الذى يصنعه البشر بأنفسهم غير مستندين فيه إلى الدين ، لا قداسة له عند واضعيه ولا عند معارضيه . ومن ثم يناقش بحرية ، ويعدل أو يلغى إذا اقتضت الضرورة بغير تحرج ولا خوف ! وعلى ذلك فالأولى عدم تطبيق الشريعة ، وترك البشر يشرعون كما يحلو لهم ، ويعدلون ويبدلون ، دون خوف فى صدورهم ، ولا اتهام لهم بالمروق من الدين !

وكأنهم حين يصنعون ذلك لم يمرقوا من الدين !!

أى لعب بعقول الناس ـ بدعوى الموضوعية والعلمية ـ أشد من هذا اللعب وأسخف من هذا اللعب ؟

إن اختلاف الأفهام حقيقة . . واختلاف الاجتهادات حقيقة ، وخاصة فيما لم يتنزل فيه نص . .

ولكن من يقول ـ مهما اختلفت الأفهام واختلفت الاجتهادات ـ إنه لا فرق بين الاجتهاد المنضبط بالضوابط الشرعية والاجتهاد المنفلت من كل ضابط إلا أهواء الناس التى يسمونها « المصلحة » رياء وذرًّا للرماد فى العيون ، وهى مصلحة فريق معين من البشر يعيثون فى الأرض فسادا ، ويريدون أن يستحمروا « الأميين » لحسابهم الخاص؟!

إن الاجتهاد المنفلت من كل ضابط إلا أهواء الناس ، والمتغلف بالمصلحة رياءً وذرًّا للرماد فى العيون، قد أباح الربا ، وأباح الزنا ، وأباح الفاحشة الشاذة ،وأباح الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله وإنكار التصورات الدينية على الإطلاق ، وأباح لخمس دول بأعيانها أن ترفض الإذعان للحق حين يحيط بها الحق من كل جانب ، برفع إصبع واحدة من يد مندوبها فى مجلس الأمن ، فيخضع الجميع ويذعنون للظلم البيّن ، وأباح لدولة بعينها ـ باسم النظام العالمى الجديد ـ أن تنزل قواتها فى أى بقعة فى الأرض تزعم أن فيها ما يخالف « القيم والمبادئ !! » فتقتل أهلها وتخرب أرضهم وديارهم وتتلقى الشكر العالمى على ذلك . . وأباح . . وأباح . . وأباح . . وجعل ذلك كله شرعا مرعيا تحميه الدولة أو الدول ذات الشأن بسلطانها وجيوشها !!

هل يمكن أن يحدث ذلك فى الاجتهاد المنضبط بالضوابط الشرعية ؟!

يختلف الفقهاء ما اختلفوا . . فهل يمكن أن يحلوا الربا [1]؟!

يختلف الفقهاء ما اختلفوا . . فهل يمكن أن يحلوا الزنا ؟!

يختلف الفقهاء ما اختلفوا . . فهل يمكن أن يحلوا الفاحشة الشاذة ؟!

يختلف الفقهاء ما اختلفوا . . فهل يمكن أن يحلوا الخمر ؟!

يختلف الفقهاء ما اختلفوا . . فهل يمكن أن يحلوا تعرى الرجال والنساء على شواطىء البحار ؟!

يختلف الفقهاء ما اختلفوا . . فهل يمكن أن يحلوا لوسائل الإعلام ـ أو لأىٍّ كان ـ أن يهاجم الدين، أو ينكر معلومًا من الدين بالضرورة، أو يحرض على معصية أوامر الله؟

إن معاصى كثيرة يمكن أن تحدث حتى فى المجتمع المسلم الملتزم بتطبيق الشريعة ، ولسنا عن هذا نتحدث . . إنما نتحدث عن التشريع الذى يحل هذه المعاصى ويعتبرها أمرا مباحا لا جناح على مرتكبيه . . وفرق كبير بين وقوع المعصية مخالَفَةً للشرع ، وتوقيع

---

(١) يكثر جدل « العصريين » المتأثرين بثقل الأمر الواقع فى كون بعض المعاملات كالسندات التى تصدرها الدولة داخلة فى الربا المحرم أم غير داخلة فيه ، ولكن أحدا من هؤلاء لا يجرؤ على تحليل الربا من حيث المبدأ .

العقوبية المنصوص عليها حين تقع وبين أن تكون مباحة بنص القانون ، فى الأولى يمكن أن يقوم مجتمع « إنسانى » تقع فيه الخطيئة بين الحين والحين ، ولكنها لا تكون هى الأصل ، وفى الثانية يقوم مجتمع « حيوانى » الخطيئة فيه هى الأصل ، والامتناع عنها هو الشذوذ !

ولسنا نقصد بالخطيئة جريمة الزنا وحدها كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من كلامنا . . فالربا خطيئة ، تؤدى ـ كما قال الخبير الألمانى شاخت ـ إلى تزايد المال فى طبقة يقل تعدادها على الدوام ، وتزايد الفقر فى طبقة يزيد تعدادها على الدوام . ويُسْحَقُ جمع هائل من البشر تحت ضغطٍ هائل مخيف يسلطه بضعة نفر من آكلى أموال الناس بالباطل على جموع « الكادحين » . . والظلم السياسى الذى تمارسه الوحوش الكبرى التى تسمى نفسها الدول العظمى خطيئة تؤدى إلى إذلال الدول الصغيرة وإفقارها ونهب خيراتها وسحق كرامتها إرضاء لشهوة السلطان عند تلك الوحوش . وإباحة الإلحاد خطيئة تهبط بالإنسان من شفافيته التى خلقه الله عليها حين خلقه « فى أحسن تقويم » ، وتحصره فى محيط ما تدركه الحواس ، فيهبط « أسفل سافلين » ويصبح كما وصفه الله ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ (١) . . الغافلون بكل معانى الغفلة ، السادرون فى الوهم والجهالة وعمى البصيرة . وإيجاد العداوة بين الدين والعلم خطيئة . . فالدين نزعة فطرية لم تغادر النفس البشرية أبدا حتى حين عملت الشيوعية على قتلها بالحديد والنار والتجسس ، فبمجرد أن سقطت الشيوعية عاد الناس إلى مساجدهم وكنائسهم ، إلا من أكل الشيطان قلبه ، والرغبة فى التعلم نزعة فطرية خلقها الله فى الإنسان ليقوم بعمارة الأرض كما كلفه : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ (٢) وإقامة الصراع بين نزعتين فطريتين متعاونتين فى الأصل غير متعارضتين ، خطيئة فى حق « الإنسان » تمزقه وتسلبه طمأنينته لحساب الشيطان ! وعشرات من الخطايا وعشرات تشرع لها الجاهلية أو تجعلها مباحة حين تنفلت من كل ضابط إلا الأهواء !

أَوَكذلك يحدث فى الاجتهاد المنضبط بضوابط الشريعة مهما اختلفت الأفهام واختلفت اجتهادات الفقهاء ؟!

إننى ـ والله ـ أشك كثيرا فيمن يلغو مثل هذا اللغو أنه يصدق حقيقةً ما يقول! . . . إلا أن يكون قد قصد قصداً إلى اللعب بالعقول !

---

(١) سورة الأعراف [١٧٩] . (٢) سورة هود [٦١] .

إن اختلاف الفقهاء هو من مزايا هذا الدين . . فقد ترك الله أمورا كثيرة للاجتهاد، رحمة منه غير نسيان كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلم الله - وقد أباح الاجتهاد فيما لم يتنزل فيه نص - أن أفهام البشر تختلف ، واجتهاداتهم تختلف « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ » (١) . فكأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أذِنَ بهذا الاختلاف فى تطبيق شريعته المنزلة ، توسعة على الناس ورفعاً للحرج عنهم ، ولو شاء لأعنتهم كما قال سبحانه فى كتابه العزيز: ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾(٢) . أفتتخذ هذه التوسعة المنضبطة أولا وآخرا بألا تحل حراماً ولا تحرم حلالا ذريعة للتسوية بين حكم الشريعة وحكم القوانين الوضعية ، بل لتفضيل القوانين الوضعية على حكم الشريعة ، مع كل ما تحمله تلك القوانين من ألوان الفساد ؟! .

* * *

هذه النقطة ذاتها - نقطة اختلاف الفقهاء فى اجتهاداتهم - يتخذها بعضهم ذريعة لإلغاء حكم الشريعة كله من زاوية أخرى ، فيتصايحون ، فى بلاهة حقيقية أو بلاهة مفتعلة : قولوا لنا كيف نطبق الشريعة ! بأى الأقوال نأخذ ؟! بقول هذا الفقيه أم ذاك الفقيه أم ذلك الفقيه ، وكل واحد منهم له رأى فى المسألة يخالف رأى الآخر ؟! حددوا لنا أى الأقوال هو الشريعة التى تريدون تطبيقها !!

ويحسبون أنهم بهذا التصايح الأبله يربكون الإسلاميين المطالبين بتحكيم الشريعة ، ويخذّلونهم عن تلك المطالبة الملحّة التى تفزع العلمانيين أى إفزاع !

وكأنما اختلاف الفقهاء قد نبت فجأة فى هذه الأيام ، وليس عمره نيّفاً وأربعة عشر قرنا من الزمان !

وكأنما القوانين الوضعية من الجانب الآخر قول واحد ومدرسة واحدة واجتهاد واحد لا يأتيه الاختلاف من بين يديه ولا من خلفه !

كيف كانت تطبق الشريعة خلال ثلاثة عشر قرنا مع اختلاف المذاهب واختلاف الاجتهادات ؟!

وكيف يختارون هم قوانينهم الوضعية من بين الآراء المختلفة والدساتير المختلفة والنظريات المختلفة ؟!

أهذا نقاش « علمى » ؟ أهذه « موضوعية » ؟!

« ما ضربوه لك إلا جدلا ، بل هم قوم خصمون » (٣)

---

(١) سورة الملك [١٤] . (٢) سورة البقرة [٢٢٠]. (٣) سورة الزخرف [٥٨] .

إنها تعتمد الدولة المسلمة اجتهاداً معيناً من هذه الاجتهادات ـ يرى فقهاء عصرها أنه الأكثر تحقيقا للمصلحة ـ فتجعله هو الشرع الملزم فى لوائحها وتنظيماتها الإدارية ومحاكمها، وتترك للقضاة حرية التحرك فى حدود ذلك الاجتهاد الملزم، كما يترك للقاضى فى ظل القانون الوضعى أن يحكم بأدنى العقوبة أو أقصى العقوبة أو يسقط الدعوى لعدم كفاية الأدلة . .

أين المشكلة ؟!

إنما هى الرغبة فى وضع العراقيل فى طريق تحكيم الشريعة، وإيهام الناس أن الفوضى ستضرب أطنابها يوم تحكم الشريعة، ويختلط الحابل بالنابل، وتضيع الحقوق، ويختل النظام !!

ألا يستحى هؤلاء من صور الفوضى الاجتماعية والأخلاقية واضطراب الأمن وشيوع الجريمة وانفلات الناس من آدميتهم فى ظل القوانين الوضعية التى يريدون التحاكم إليها بدلا من شرع الله ؟!

* * *

صيحة أخرى يتصايح بها العلمانيون لمحاولة تخذيل المطالبين بتحكيم الشريعة . .

أرونا برامجكم! نريد برامج عملية قابلة للتنفيذ، لا مجرد التصايح بتحكيم الشريعة . . أرونا كيف تحل الشريعة التى تريدون تطبيقها مشاكل التخلف الاقتصادى والتضخم السكانى والديون المتراكمة والمعدات الخاوية والأيدى المتعطلة إلخ . . إلخ

وهذه الصيحة التى يرددها العلمانيون كلما علت أصوات المطالبين بتحكيم الشريعة، يحسب أصحابها أنها القنبلة المدمرة التى ستعصف بكيان الإسلاميين وتكشف عجزهم وضعف موقفهم، وتصرف الناس عن تأييدهم والالتفاف حولهم . . بينما هى فى الحقيقة تكشف عن مدى تدنى « الحس الإسلامى » فى واقعنا المعاصر، ومدى تغلغل الغزو الفكرى فى حياتنا، وتأثيره فى طريقة تناولنا لقضايانا الرئيسية . . حتى قضايا العقيدة !

إن القضية من وجهة النظر الغربية التى صرنا نتناول بها قضايانا أن هناك «جماعة» أو « حزبا » يرفع شعاراً معيناً يريد أن يجعله أساساً للحكم . وإذن فليقدم هذا الحزب برنامجه، ليحكم الناس له أو عليه، ويعطوه أصواتهم أو يحجبوها عنه، بحسب اقتناعهم بالبرنامج أو عدم اقتناعهم به !

أما القضية من وجهة النظر الإسلامية فمختلفة تماماً . .

إن تحكيم الشريعة الإسلامية أمر لا يخص فرداً معيناً أو جماعة معينة حتى تكون هى المختصة بأمره ، المطالَبَـةَ بوضع البرنامج لتنفيذه ! . . إنه أمر كل مسلم . . كل مسلم ينطق بفمه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، مطالب أمام ربه بتحكيم الشريعة الربانية . فإن كانت محكّمة بالفعل فبها ونعمت . وإن لم تكن قائمة فهو يخرج من دائرة الإسلام أصلا إن رضى بهذا الأمر وتابع ، كما نص كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فضلا عن أن يتبجح برفض تحكيم الشريعة، أو يطالب بعدم تحكيمها !

أما البرامج التطبيقية فقد تختلف فيها وجهات النظر ، وقد تتناقش فيها الجماعات المختلفة ، وقد يعرض الأمر على أهل الاختصاص ليروا أى وجهات النظر أصوب . . ولكن هذا كله لا يتعلق بالأصل ، وهو تطبيق الشريعة التى يجب أن تكون هى المظلة التى يقف تحتها كل من ينطق بفمه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والتى فى ظلها تفكر الأمة المسلمة ، وفى ظلها تستعرض برامجها .

لقد جعل الله التحاكم إلى شريعة الله محكًّا للإيمان، شأنه شأن الاعتقاد بوحدانية الله ، وتوجيه كل ألوان العبادة له وحده بلا شريك :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله » (١)

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » (٢)

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » (٣)

وكما أن الإيمان بالله الواحد مسئولية كل مسلم على الإطلاق ، لا مسئولية بعض الناس دون بعض، وكما أن توجيه العبادة لله وحده بلا شريك مسئولية كل مسلم على الإطلاق، لامسئولية بعض الناس دون بعض، فكذلك التحاكم إلى شريعة الله هو مسئولية كل مسلم على الإطلاق، وليس مسئولية بعض الناس دون بعض .

والأصل فى حياة هذه الأمة أن تكون الشريعة الربانية هى الحاكمة فيها ، دونما حاجة لأن يطالِبَ بذلك فرد منها ولاجماعة ، لأنها إلزام ربانى ، لايتوقف على مطالبة أحد

---

(١) سورة محمد [١٩] . (٢) سورة النساء [٣٦] .
(٣) سورة النساء [٦٥] .

أو عدم مطالبته. إنما يقوم به المؤمنون تعبداً واحتساباً، ولا يملكون ألا يقوموا به لأنهم إن رفضوه فإنهم يخرجون بذلك من أصل الإسلام، وكذلك إن رضوا بتحكيم شريعةغير شريعة الله .

وإذا كان الأمر الواقع اليوم أن هناك دعاة وجماعات تطالب بتحكيم الشريعة فسبب ذلك أن الغزو الصليبي قد قام بتنحية الشريعة عن الحكم في البلاد الإسلامية التي دنستها قدماه ، واستكانت الأمة لما أحدثه الغزو الصليبي فترة من الوقت ، ثم قام دعاة وجماعات من الأمة بالدعوة إلى إعادة الأمور إلى أصلها الذي كانت عليه قبل ذلك الغزو الغادر ، وتحملوا مسئولية الجهاد في هذا السبيل . ولكن ليس معنى هذا أن يكونوا هم المسئولين وحدهم عن هذا الأمر فيطالَبُوا وحدهم بإنجاز ما يجب على الأمة بأكملها أن تقوم به ، ولا معناه أن يعلق تحكيم الشريعة على تقديم هذه الجماعات برنامجا للتنفيذ ! فضلا عن أن يقوم في هذه الأمة من يعلن جهاراً أنه لا يوافق على تطبيق الشريعة ! وفضلا عن أن يؤخذ المطالبون بتحكيم الشريعة فيقتّلوا ويعذّبوا ، ويتهموا بالخروج على « الشرعية ! » كأنما توجد في الإسلام شرعية بغير شريعة !!

كذلك فإن تحكيم الشريعة أمر لا يخيّر فيه الناس ولا يُسْتَفْتَوْن ، لأن الله يقول : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾(1) . والتخيير إنما يكون في أمر يملك الناس فيه الخيار . فإذا قال الله إنه لا خيار في هذا الأمر بل إلزام ، وإنه متصل بأصل الاعتقاد ، فكيف يكون التخيير؟!

أيخيّر المسلم في الدولة الإسلامية فيسأل : هل تريد أن تكون مسلما أم تريد الكفر . . والعياذ بالله ؟!

ولكن الأمر قد وصل بهذه الأمة أن يكون تطبيق الشريعة الذي هو أصل ثابت من أصول الإيمان موضع استفتاء وتخيير ، ثم إذا اختارت أغلبية ساحقة من الناس تحكيم الشريعة اختياراً حراً لا شبهة فيه ولا مراء - كما حدث في الجزائر - قيل لهم : لا نسمح لكم بتنفيذ ما اختارته الأمة . . لأنكم غير ديمقراطيين !!!

وهذا يعيدنا إلى أصل القضية : بأي الأمرين يلتزم المسلم؟ بالإسلام أم بالديمقراطية؟ هل يُعْرَض الإسلام على الديمقراطية لتقبل منه ما تقبل وترفض منه ماترفض؟ أم تعرض الديمقراطية على الإسلام فيقبل منها ما يقبل ، ويرفض منها ما يرفض ؟!

---

(1) سورة الأحزاب [٣٦] .

وجواب الإسلام معروف !

* * *

ونترك الآن قضية البرنامج التى يتصايح بها العلمانيون كلما ارتفعت أصوات الذين يطالبون بتحكيم الشريعة ، والتى ينخدع بها بعض الدعاة أحيانا ، فينصرفون عن مهمة الدعوة الحقيقية ، وهى تربية جيل من الناس على حقيقة الإسلام ، إلى محاولة وضع برنامج عملى ، للرد على العلمانيين وإبطال حجتهم ! بينما العلمانيون ـ ومَنْ وراءهم ـ لا يطلبون البرنامج العملى حقيقةً ! ولو قدم لهم البرنامج لا زدادوا طغيانا فى حرب الإسلام والمسلمين ! إنما يريدون التشويش والتعطيل ، وصرف الجهود عن الهدف المنشود !

نترك قضية البرنامج لمن يشغل نفسه بالوصول إلى الحكم ! إنما نحن لا نطلب الحكم ، لأننا نعلم أن دون ذلك جهداً ضخما يبذل أولا فى تربية الأمة على الإسلام . . وإنما نطالب بأمر أقل من ذلك بكثير . . وهو حرية الدعوة . . حرية توصيل « الكلمة » إلى الناس . .

* * *

نترك قضية البرنامج لننتقل إلى القضية الثانية فى هذا المبحث ، وهى : هل تصلح التجربة الأوربية منهجا لحياتنا ، وحياة البشرية . . وإذا لم تكن تصلح فما البديل ؟

إن العلمانيين يريدون أن يكون محك القبول أو الرفض هو الديمقراطية وليس الإسلام . .

وبصرف النظر عن إخلاص العلمانيين الحقيقى للديمقراطية ، وهم الذين كانوا يؤيدون أبشع ألوان البطش السياسى فى تاريخ هذه الأمة ـ بطش العسكر ـ لمجرد أنه يضرب المسلمين ، والذين وقفوا ضد الديمقراطية جهاراً حين أوصلت الإسلاميين إلى الحكم فى الجزائر . . بصرف النظر عن ذلك فسوف نناقش الأمر مع العلمانيين من الناحية الموضوعية ، كما ناقش يوسف عليه السلام صاحبيه فى السجن :

﴿ أأرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار ؟! ﴾ (١)

إن الديمقراطية ـ بيقين ـ ليست فكرا ذاتيا للعلمانيين أتوا به من عند أنفسهم ، إنما هو فكر مجلوب ، أتوا به من الغرب ، وهم لا ينكرون ذلك بل يفاخرون به . .

---

(١) سورة يوسف [٣٩].

وأوربا ـ حسب تجربتها الخاصة ـ معذورة حين تنادى بالديمقراطية وتصر عليها، لأنها لم تعرف فى حياتها سوى نوعين اثنين من الحكم : الدكتاتورية والديمقراطية ، وقد ذاقت كل أنواع الويل فى الدكتاتورية ، ولم تنل حقوقها وضماناتها إلا فى الديمقراطية فهى حريصة عليها كل الحرص . وهى تقيس ـ حسب تجربتها الخاصة ـ كل أنواع الحكم على ميزانها الخاص ، فكل ما ليس ديمقراطية فهو دكتاتورية ، وهو معيب ومرذول ، والحكم الدينى « الثيوقراطى » هو فى ميزانها فى خانة الدكتاتورية ـ وقد كان كذلك بالفعل فى التجربة الأوربية ـ فهو معيب ومرذول .

أما المسلمون فلهم ميزانهم الخاص ، وهو ميزان لا يأتون به من عند أنفسهم ، لأن هذه القضايا ليست مما ترك للبشر ليحكموا فيه ، بل هى داخلة فى عموم قوله تعالى : ﴿إن الحكم إلا لله﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ [2] أى أنه سبحانه هو صاحب الأمر ، بمقتضى كونه سبحانه هو الخالق . فهو الذى يحل ويحرم ، وهو الذى يضع للناس منهاج حياتهم ، وهو الذى يقول : هذا حسن وهذا قبيح. هذا مباح وهذا غير مباح ، وبمقتضى كونه سبحانه هو اللطيف الخبير، الحكيم العليم ، الذى يعلم ما يصلح للإنسان وما لا يصلح له .

وفى الميزان الربانى يوجد نوعان اثنان من الحكم: إما حكم الله ،وإما حكم الجاهلية :

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ [3]

ومن ثم فكل حكم غير حكم الله فهو حكم جاهلية. والديمقراطية حيث إنها ليست حكم الله فهى فى ميزان الله جاهلية . .

ونعلم أن كثيرا من الناس سيصيحون عجباً واستنكاراً أن توصف الديمقراطية بأنها حكم جاهلى ؛ وليس العلمانيون وحدهم هم الذين سيستنكرون فى هذه المرة ، بل كثير من « الإسلاميين » كذلك !

ونسارع فنقول لهؤلاء إننا حين نضع الديمقراطية فى ميزان الله الحق ، فنَصِفُها بأنها حكم جاهلى ، فليس البديل الذى ندعو إليه هو الدكتاتورية ، كما يتبادر إلى أذهان الذين تشبعوا بالغزو الفكرى ، فلم يعد لهم ميزان يزنون به الأمور ، إنما صار ميزانهم هو ميزان أوربا ، بدعوى أنه ميزان عالمى لا يخص أوربا وحدها ، وإنما يشمل البشر جميعا!

---

(١) سورة يوسف [٤٠]. (٢) سورة الأعراف [٥٤].

(٣) سورة المائدة [٥٠]

إنما البديل الذى ندعو إليه هو الإسلام.. هو المنهج الربانى الذى أنزله الله ليصلح به الأرض ويصونها من الفساد :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١)

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ (٢)

وحين نقوّم الديمقراطية فى الميزان الربانى فهناك معياران أساسيان. المعيار الأول من المعبود فى هذا النظام (ويدخل فى هذه القضية بالضرورة : من المشرع ؟) والمعيار الثانى : مدى تحقق إنسانية الإنسان فى ذلك النظام .

وللعلمانية دعوى عريضة فى أنها لا تعارض الدين . إنما هى تحصره فى دائرة الاعتقاد والعبادة ، وتمنعه من الهيمنة على عالم السياسة ، فتجعل « الأمة » هى مصدر السلطات ، وهى التى من حقها التشريع .

وهذا ـ فى الإسلام ـ ليس له اسم إلا الجاهلية !

فالجذور الثلاثة الرئيسية للجاهلية هى اعتقاد وجود آلهة مع الله (شرك الاعتقاد) وتوجيه شىء من العبادة لغير الله (شرك العبادة) والتشريع ـ أى التحليل والتحريم ـ من دون الله (شرك الاتباع) .

وحين تجعل الديمقراطية حق التشريع ـ أى التحليل والتحريم ـ « للأمة » من دون الله ، فهى تقع فى أحد أنواع الشرك الرئيسية ، ومن ثم فهى جاهلية فى ميزان الله .

والذين يهولهم أن توصف كل الحقوق والضمانات التى تحملها الديمقراطية للناس بأنها جاهلية نقول لهم : إن الإسلام لا يرفض تلك الحقوق والضمانات فى عمومها ، ولا يرفض أن يكون للفرد كرامة تمنع « الدولة » أو « الحاكم » من اعتقاله أو سجنه أو إهانته أو تعذيبه أو التضييق عليه لمجرد أنه يخالف الحاكم أو يعارضه . . فهذه الضمانات والحقوق كلها من صميم الإسلام ، والإسلام هو الذى منحها للبشر قبل أن تمنحهم إياها الديمقراطية بأكثر من ألف عام . . إنما الذى يرفضه الإسلام ويصر على رفضه هو إعطاء البشر ـ أى بشر ـ حق التشريع ابتداء ، أى حق التحليل والتحريم من دون

---

(١) سورة الروم [٣٠] .

(٢) سورة المائدة [٣] .

الله ، وبما يخالف أوامر الله [1] ، وهذا ـ بالذات ـ هو الذى تصر الديمقراطية عليه ،وهو هو الذى يضع الديمقراطية فى خانة الجاهلية ، على الرغم من كل ما تحمله للناس من حقوق وضمانات لا يعارضها الإسلام ، بل كان هو أول من منحها للبشرية كما سيجيء بيانه .

وحين يحكم الإسلام فلن يلغى الحقوق والضمانات التى منحها الله للبشر يوم أكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته ، إنما هو سيلغى فقط ألوان الفساد التى تعج بها الأرض فى ظل الجاهلية المعاصرة ، وفى ظل كل جاهلية التاريخ .

* * *

المعيار الثانى فى هذه القضية هو مدى تحقق إنسانية الإنسان .

والبحث فى إنسانية الإنسان يستلزم تحديد غاية وجوده فى هذا الكون، فمن الذى يحدد له غاية وجوده ؟!

إنها فى الحقيقة ذات القضية !

فإذا كان ردحق التشريع لله مبنيا على كونه سبحانه هو الخالق، وهو اللطيف الخبير:

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ [2]

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [3]

فكذلك حق تحديد غاية الوجود . . هو للخالق الذى أوجد ، وللطيف الخبير الذى يعلم .

وحين يستنكف الإنسان عن عبادة الله ويستكبر ، ويزعم أنه أدرى بغاية وجوده من خالقه! وأدرى بالمنهج الذى يحقق غاية وجوده من اللطيف الخبير، العليم الحكيم، يحدث ما يحدث من الفساد فى الأرض . .

فإذا عرضنا الديمقراطية على ميزان الإسلام فى قضية تحقيق إنسانية الإنسان فماذا نرى؟

نرى صفحتين مختلفتين ، إحداهما مشرقة شديدة الإشراق، تلك هى صفحة الحقوق والضمانات التى تعطيها الديمقراطية للفرد ضد طغيان الدولة ، والأخرى سوداء حالكة السواد ، هى إباحة الإلحاد بدعوى حرية العبادة ، وإباحة الفوضى الجنسية والأخلاقية

---

(١) أما الاجتهاد فى حدود مقاصد الشريعة فمباح بشروطه المعروفة .

(٢) سورة الأعراف [٥٤] . (٣) سورة الملك [١٤] .

بدعوى الحرية الشخصية ، وثمة صفحة ثالثة يختلط فيها السواد والبياض ، ظاهرها حقوق التمثيل السياسي وتشكيل الأحزاب وحرية الاجتماع والتعبير . . إلخ ، وباطنها سيطرة رأس المال ، ومن وراء ذلك سيطرة اليهود . .

ونضرب صفحا الآن عن الصفحة الثالثة ، وننظر إلى الصفحتين الأخريين ، ونسأل : إذا أنت منحت إنساناً ما ثوباً جميلاً نظيفاً رائع الجمال ، ثم دفعته إلى حفرة من الطين أو سمحت له بإلقاء نفسه في الحفرة ، وحرّمت على الآخرين أن يمنعوه من ذلك بدعوى أن هذه حريته الشخصية (!) فماذا تجد في النهاية ـ وقد حُفت هذه الحفرة بالشهوات ـ إلا أن تجد الناس في النهاية غرقى في الطين ؟!

هل نكون الإنسان يومئذ قد حقق غاية وجوده ؟!

ولا يقولن أحد : نأخذ الصفحة المشرقة وحدها ، ونترك الصفحة الحالكة ، لأننا عندئذ لن نكون ديمقراطيين ! لأنك إذا منعت الإلحاد بسلطة القانون ، ومنعت قذارة الفوضى الجنسية بسلطة التشريع ، فقد اعتديت على « الحرية الشخصية » وأصبحت . . يا للهول ! . . أصبحت أصوليا! أصبحت إرهابيا! . . أصبحت عدواً للديمقراطية !!

* * *

ونعود الآن إلى الحقوق والضمانات .

يشكك العلمانيون في وجود تلك الحقوق والضمانات في الإسلام ، ويزعمون أن «الإسلاميين » إنما تعلموا الحديث عنها من ديمقراطية الغرب ، ثم ألصقوها بالإسلام زورا وبهتانا ، ليزعموا أن الإسلام يغنينا عن استيراد المبادئ والنظم من الغرب . .

وحين نقول لهم تعالوا إلى فترة الخلافة الراشدة ننظر في أحوالها ، ونستنبط الفكر السياسي منها يقولون : كلا ! لا تستشهدوا بفترة الخلافة الراشدة ، لأن واقع المسلمين بعد ذلك قد امتلأ بالجور والاستبداد .

وقد رددنا على ذلك من قبل . .

ونؤكد هنا مرة أخرى أننا سنظل نستشهد بفترة الخلافة الراشدة من أجل الدلالة التي تحملها : دلالة أنها من صنع الإسلام لا من صنع أي عنصر آخر غير الإسلام . .

وإلا فمن أين جاءت ؟!

ولنأخذ عمر رضى الله عنه على سبيل المثال . . كيف كان فى الجاهلية ؟ وكيف صار فى الإسلام ؟

كان فى الجاهلية جبارا يفزع الناس بجبروته . . فصار ألين الناس فى الإسلام مع شدته فى الحق .

وخذ ـ فيما نحن بصدده ـ ذلك الحادث النموذج :

وقف عمر يخطب الناس فى المسجد فقال : أيها الناس ! اسمعوا وأطيعوا ! فقال له سلمان الفارسى رضى الله عنه : لا سمع لك علينا اليوم ولا طاعة ! فلم يغضب ، ولم يحتقن قلبه غيظا من ذلك الذى يتحدى سلطانه ـ سلطان الخلافة ـ بل قال متسائلا : ولم ؟ قال سلمان : حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزرت به ، وقد نالك برد واحد كما نال بقية المسلمين ، وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد ! فلم يغضب عمر مرة أخرى ، بل نادى فى المسجد : يا عبد الله ! فلم يجب أحد لأن كل الناس عبادٌ لله وهو لم يحدد أيهم يريد! فقال : يا عبد الله بن عمر ! قال : لبيك يا أمير المؤمنين . قال نشدتك الله ! هذا البرد الذى ائتزرت به ، أهو بردك ؟ قال : نعم ! والتفت إلى المسلمين يقول : إن أبى رجل طوال لا يكفيه البرد الذى ناله كبقية المسلمين ، فأعطيته بردى ليأتزر به ! قال سلمان : الآن مر ! نسمع ونطع !

من أين جاء هذا النموذج الفذ ؟ هل له مصدر غير الإسلام ؟

ولننظر فى تاريخ الديمقراطية كله . . هل حوى نموذجا فى روعة ذلك النموذج ؟

الإسلام إذن هو أبو « الحقوق السياسية للأمة » التى تمنح الأمة حق مساءلة الحاكم على الصغيرة والكبيرة ، وتعلق طاعة الحاكم على طاعته هو لله ورسوله . .

ولنأخذ من سيرة عمر رضى الله عنه ذلك النموذج الآخر :

قام عمر يوما يخطب الناس فقال : أيها الناس ! إن أحسنت فأعينونى ، وإن رأيتم فىّ اعوجاجا فقوّمونى !

أرأيت! إنه يحرض الناس على مراجعته وتقويمه ، ولا ينتظر حتى يقوموا هم بذلك فيذعن لهم ، وهو أقصى ما حققته الديمقراطية فى عالم الواقع . . ولكن الحادث الفذ لاينتهى هنا ، وهو فى ذاته رائع . . إنما يمتد وراء ذلك . .

قال سلمان رضى الله عنه : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف !

فيقول عمر رضى الله عنه : الحمد لله الذى جعل فى رعية عمر من يقوّمه بحد سيفه ! !

سيقولون : حادث فذ لا يتكرر . . ولم يتكرر . .

نقول نعم ! ولكن من صنعه ؟ أثمة شيء غير الإسلام ؟

وأنتم تقولون إن الديمقراطية تمنح الناس مثل هذه الحقوق، ويمارسها الناس هناك .

ونتغاضى الآن عن جملة من الحقائق التي يدركها كل باحث في الديمقراطية الرأسمالية الغربية، وهي أن هذه الحريات كلها تتلاشى حين تُمَسُّ مصالح الرأسمالية أو تصطدم بالنفوذ اليهودي. ويكفي للدلالة على ذلك مقتل كنيدي عام ١٩٦٣ حين اصطدمت سياسته بالمصالح اليهودية ، كما يكفي للدلالة سحب درجتين جامعيتين واحدة في فرنسا والثانية في أمريكا ، وتنزيل صاحبيهما من مركزيهما ، لأنهما أثبتا بالوثائق كذب الدعاوي اليهودية التي يستندون إليها في استدرار عطف العالم وجره إلى الموافقة بل الترحيب ـ بسلب حقوق العرب في فلسطين!

نتغاضى الآن عن ذلك، ونقول للعلمانيين: أنتم تقولون إن الديمقراطية تمنح الناس هذه الحقوق وتربيهم عليها، فما الذي يمنع إذن من تربية الناس عليها في الإسلام، وهي نتاج إسلامي أصيل مارسه المسلمون قبل بزوغ الديمقراطية بأكثر من ألف عام ؟!

هل يمنعنا الواقع الإسلامي التاريخي الذي فرط في الحقوق الربانية؛ ووقع فيه الاستبداد ؟

ولماذا يمنعنا ؟

ألستم تنادون بدعوة جديدة وحياة جديدة ومثل جديدة في ظل الديمقراطية ؟

ونحن ندعو بدعوة ليست جديدة ! دعوة « رجعية » جدا . . تعود إلى عهد الخلافة الراشدة ! ونقول للناس : ارجعوا إليها !

فإذا أمكن تحقيق دعوتكم في ظل العلمانية ، فلماذا لا يمكن تحقيق دعوتنا في ظل الإسلام ؟!

* * *

يقولون في دعاواهم إن الإسلام بطبيعته « أحادي النظرة » لا يقبل إلا وجهة نظر واحدة، ولا يحترم وجود « الآخر » ولا « الرأي الآخر »، ويتهم المعارضين بأنهم خارجون على الدين ، فيتعسف في معاملتهم !

وإنه نظام لا يسمح بقيام الأحزاب ولا يسمح بتداول الحكم . .

وإنه نظام « شمولى » يمهد بطبيعته للاستبداد السياسى !

أما الدعوى الأولى فليس أكذب منها على التاريخ !

إن علماء المسلمين هم الذين علموا العالم كيف يختلف الناس دون أن يقوم بينهم شجار ، ولا عداوة ، ولا بغضاء !

كان العالم منهم يقول : قولنا صواب يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب!

أى روح علمية ، وأية رحابة صدر أعظم من ذلك ؟!

إن العالم منهم لايلقى كلامه على عواهنه، وإنما يستدل بالدليل، ويكد ذهنه لينضبط كلامه بالضوابط الشرعية، ومع ذلك يحتاط ـ لله ـ فيقول إنه يعتقد أنه على صواب ولكنه لا يقطع بذلك خشية أن يكون الحق مخالفاً لقوله فلا يكون قد أدى الأمانة لله :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . . » (١)

وذلك تجرد للحقيقة وللبحث العلمى لا يتصور أروع منه . . فمن قال إن الإسلام لا يقبل إلا وجهة نظر واحدة ، ولا يحترم « الآخر » ولا الرأى « الرأى » ؟!

وكيف نشأت المذاهب إذن ؟ وكيف اختلفت الاجتهادات ؟ وكيف نشأ فى الفقه علم يسمى « علم الخلاف » ؟!

ولكن العلمانيين يقصدون شيئا آخر ، سواء جهروا به أم لم يجهروا . . وبعضهم يجهر بالفعل !

إنهم يريدون أن يكون « الدين » وجهة نظر ! إحدى وجهات النظر المعروضة فى الساحة! وهناك ـ معه ـ وجهة نظر أخرى، ورأى آخر . والإنسان حر . . يأخذ « بوجهة نظر الدين » أو بوجهة النظر الأخرى . . وحبذا ـ لكى يكون حرّ الفكر ـ أن يأخذ بوجهة النظر الأخرى وينبذ وجهة نظر الدين . . بغير تحريج على عمله هذا ولا تأثيم !

هذه هى القضية فى حقيقتها . . يجهر بها بعضهم أحيانا ، ويغلفها الآخرون بغلاف لا يخفى حقيقتها !

يا للغزو الفكرى . . كم تمكن من تلك القلوب !

إن تجربة أوربا مع دينها هى التى أدت بها إلى هذا الوضع المقلوب .

فقد وثقت أوربا فى دينها المزيف ثقة عمياء، على أساس أنه الحق الذى لا يأتيه

---

(١) سورة النساء [١٣٥] .

الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . وكانت لذلك الدين قداسة فى نفوسهم ، ولرجاله احترام وتوقير يصلان إلى حد التقديس بالنسبة « لقداسة البابا » وينزل سفلا حتى يصل جزء منه إلى « راعى الأبرشية » [1] وهو أصغر رجالهم قدراً وأصغرهم سناً !

ثم رويداً رويداً اكتشفت أوربا أنها كانت مخدوعة خديعة كبرى برجال الدين أولا ثم بالدين ذاته أخيرا !

وزاد الأمر سوءاً حين قامت الكنيسة تحّرق العلماء وتعذبهم لأنهم نادوا بآراء ونظريات علمية ثبتت صحتها بعد ذلك ، وثبت أن ما كانت تقوله الكنيسة فى حقها غير صحيح . .

عندئذ بدأ الناس ـ الأحرار الفكر ـ يشكّون فى كل ما تقوله الكنيسة ، وكل ما يأتى من قِبَل الدين . .

لم يعد الدين حقائق نهائية كما كان فى حس الناس من قبل ، إنما أصبح وجهة نظر وأصبح معها وجهات نظر أخرى يؤكد العلم ، وتؤكد التجربة ، وتشير دلائل كثيرة أنها أولى بالاعتبار من وجهة النظر التى يدلى بها رجال الدين . . فعندئذ لم يقف الأمر عند أن يكون الدين وجهة نظر . . مجرد وجهة نظر . . إنما أصبح هو وجهة النظر الأخف وزنا والأضعف أدلة . . وانتهى به الأمر أن يكون هو وجهة النظر المنبوذة ، التى تذكر للتنديد بها ، والسخرية بقائليها ، وبيان ضعفها وفجاجتها ، ثم العدول عنها إلى «وجهة النظر الأخرى » !

هذه الصورة التى لها ما يفسرها فى التجربة الأوربية ، والتى سببها تزييف الدين الذى عرفته أوربا وتحريفه . . يحب العلمانيون ألا يفوتهم « شرفها » و « وجاهتها » ! فيطبقونها ـ ويدعون إلى تطبيقها ـ على الدين الحق الذى شهدت له السموات والأرض ومن فيهن !

يريدون ـ بحجة الديمقراطية ، أو بأى حجة أخرى ـ أن يحولوا كلام الله الحق إلى وجهة نظر ! ثم يحولوه ـ بالمواظبة ـ إلى وجهة نظر منبوذة لا يؤخذ بها ، بل يعدل عنها إلى « وجهة النظر الأخرى » !

وعندئذ يكونون قد بلغوا مرامهم من هدم هذا الدين . .

---

(١) هو كاهن القرية الصغيرة ، وهو فى أول السلم الكهنوتى ، وقد يبقى هناك حياته كلها ، أو يسعفه الحظ فيرقّى .

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (١)

مرحبا بالرأى والرأى الآخر حين يكون بين بشر وبشر . . فليس من حق بشر أن يدعى العصمة لنفسه ولكلامه ، ويهمل كلام الآخرين لمجرد أنهم يخالفونه فى الرأى . . إنما الدليل هو الذى يقرر أى الرأيين أقرب إلى الصواب .

أما حين يكون الأمر بين كلام الله وكلام البشر ، فمن ذا الذى يبلغ به التبجح أن يقول إنه أعلم من الله ، وإن كلام الله لا يلزمه لأنه مجرد وجهة نظر ؟ !

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾(٢)

وويح للذين يخنسون ويبتلعون آراءهم فى جوفهم إذا تكلم رئيس دولة من طغاة الأرض ، فإذا ذكر كلام الله لَوَّوْا رءوسهم وقالوا : هذه وجهة نظر الدين . . أما نحن فلنا وجهة نظر مختلفة !

وهل فعل الشيطان غير ذلك حين استحق اللعنة الأبدية من الله ؟ !

﴿ قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين ! قال : فاخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ﴾(٣)

﴿ إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه . فاستعذ بالله ، إنه هو السميع البصير ﴾(٤)

* * *

أما قضية قيام الأحزاب وتداول الحكم فهى صورة أخرى من صور تدنى «الحس الإسلامى » فى واقعنا المعاصر، وتغلغل الغزو الفكرى فى حياتنا . . إن الحس الإسلامى يمنع « احتراف » التأييد واحتراف المعارضة، اللذين تمارسهما الديمقراطية الحزبية فى واقعها التطبيقى، أياً كان الغطاء النظرى أو « الأيديولوجى » الذى تتم هذه الممارسة تحته !

تتم الانتخابات، فيتسلم الحكم الحزب الفائز، فيجلس أعضاؤه فى مقاعد التأييد، وتجلس الأحزاب الأخرى فى مقاعد المعارضة ! ويحترف الأولون التأييد للحكومة فى قراراتها

---

(١) سورة الصف [٨ ـ ٩] .
(٢) سورة الأحزاب [٣٦] .
(٣) سورة ص [٧٦ ـ ٧٨] .
(٤) سورة غافر [٥٦] .

ولو كانوا غير مقتنعين بها ، ويحترف الآخرون المعارضة ولو كانوا مقتنعين بوجاهتها. ويحدث كثيرا أن يعارض قوم قرارا معينا وهم فى مقاعد المعارضة ، فإذا جاءوا إلى الحكم أيدوا القرار ذاته إذا صدر عن حكومتهم! أو العكس! وأبرز الأمثلة على ذلك أن حزب العمال البريطانى يطالب ـ طالما كان فى المعارضة ـ برفع أجور العمال وتخفيض ساعات العمل ، مما لا يوافق عليه حزب المحافظين الممثل لمصالح الرأسمالية . . فإذا جاء حزب العمال إلى الحكم رفض رفع الأجور وتخفيض ساعات العمل ـ أو عجز عن التنفيذ ! سيان ! ـ لأن ذلك يؤدى إلى التضخم من ناحية ، ويؤذى مصالح الرأسمالية من جهة أخرى ، وهى الحاكم الحقيقى من وراء لعبة تداول الحكم وتعدد الأحزاب ! !

أفيراد تمثيل هذه اللعبة فى الإسلام لنكون حضاريين ، ونكون تقدميين ، ونكون عصريين ؟ !

إن المسلم لا يحترف التأييد ولا يحترف المعارضة ، إنما يدور مع الحق حيث دار . . وقد يخطئ اجتهاده ، ويغيب عنه وجه المصلحة فيحسبه هنا وهو هناك . . ولا حرج فى ذلك ، وله أن ينادى بما يعتقد أنه حق ، لا تعصباً لرأيه ، وله أن يغيّر رأيه ـ بلا حرج ـ إذا تبين له أن اجتهاد غيره أصوب ، كالخلاف الذى وقع بين عمر وبلال رضى الله عنهما فى مسألة الفىء ، فرأى عمر رضى الله عنه رأيا فعارضه بلال رضى الله عنه ، وأصر زمناً على معارضته ، حتى صار عمر رضى الله عنه يدعو فيقول : اللهم اكفنى بلالا وأصحابه ! وفى الأخير فاء بلال رضى الله عنه إلى رأى عمر ، فغيّر موقفه من المسألة بغير حرج حين اقتنع بأن اجتهاد عمر أصوب من اجتهاده . .

هكذا تجرى الأمور فى الشورى الإسلامية . . فهل يستلزم هذا قيام أحزاب ثابتة متعددة تحترف التأييد تارة والمعارضة تارة حسب موقعها من كراسى الحكم ؟ !

إننى لا « أفتى » فى هذه القضية ، وأترك أمر الفتوى للفقهاء . . وإن كنت أرى أنه من العبث مجادلة العلمانيين فى هذا الأمر فى الوقت الحاضر ، ولكنى أبين فقط كم اجْترفَنَا الغزو الفكرى ، فأصبحنا لا نرى الأمور إلا بمنظار الغرب ، الذى تشكل فى ظروف تاريخية معينة ، ليرى الأمور على صورة معينة ، قد لا تكون بالضرورة لازمة فى ظروف أخرى وأوضاع مغايرة . .

أما تداول الحكم فما المقصود به ؟ !

إن من حق المسلمين أن يناقشوا حاكمهم ، ويردوه إلى الصواب إذا أخطأ ، ويغيروه إذا أصر على الخطأ ، بالطريقة التى اتفق عليها فقهاء السياسة الشرعية . .

أما أن يكون تداول الحكم أصلا من الأصول يطلب لذاته ، ويمارس فقط بغية «الوجاهة » و « العصرانية »! فأمر لا تفسير له إلا الغزو الفكرى الذى يلعب بالعقول !

والقضية على أى حال لها خبىء عند العلمانيين غير الظاهر الذى تناقش المسألة فى إطاره . .

إن العلمانيين يريدون أن يقولوا للإسلاميين ـ وقد قالوا بالفعل ـ تعهدوا لنا أيها الإسلاميون أنكم إذا وصلتم إلى الحكم ـ رغم كل تضييقاتنا عليكم ، ومحاولتنا منعكم من الوصول إليه ـ تعهدوا لنا أن « تَسْقُطُوا » بعد فترة محددة ، وتسلمونا الحكم بعدكم! وإلا فلن نوصلكم أبدا مهما حاولتم ، ولوا ستعملنا ضدكم الحديد والنار . . ولتذهب الديمقراطية يومئذ إلى الجحيم ! فإنما نحن لجأنا إلى الديمقراطية أملا فى أنكم لن تصلوا عن طريقها أبداً إلى أغلبية شعبية توصلكم للحكم ، أما وقد ازداد خطركم بحيث يمكن أن تصلوا عن طريق صناديق الانتخاب كما حدث فى الجزائر . . فلتحترق الديمقراطية ولتذهب إلى أبد الآبدين !

نقول للعلمانيين إنه ـ من الوجهة النظرية البحتة ـ ليس هناك مانع أن يتغير عهد ويأتى عهد آخر . ولكن العهد الأول والعهد الآخر لابد أن يحكما كلاهما بشريعة الله! لأنه لا يتأتى لمسلم أن يحكم الناس بشريعة غير شريعة الله ، فيقع فى الشرك المخرج من الملة ، ويقعون هم ـ إذا رضوا بذلك وتابعوه ـ فى الشرك المخرج من الملة .

وقد لجأ العلمانيون فى حواراتهم مع الإسلاميين إلى محاولة إحراجهم، فقالوا لهم أتقبلون الديمقراطية أساسا للحكم ؟ قالوا : نعم ! والإسلام أبو الديمقراطية ! فقالوا لهم : أتقبلون التعددية ؟ قالوا : نعم ! ولها أصل فى الإسلام ! فقالوا : وتقبلون تداول الحكم ؟!

نقول للعلمانيين : إنه لا يوجد مسلم يملك أن يوافق على حكم يحكم بغير ما أنزل الله ، ولا أن يتعهد بالموافقة على ذلك ، لأنه يخرج بذلك من الإسلام .

إنما يخضع المسلمون اليوم لحكومات تحكمهم قهراً بغير ما أنزل الله لأنهم مستضعفون فى الأرض ، فى ظل السيطرة الصليبية الصهيونية على الأرض اليوم . .

أما أن يوافقوا . . أما أن يرضوا . . فدون ذلك نار جهنم والعياذ بالله . .

بقيت دعوى الشمولية ، والخوف من الاستبداد إذا وصلت إحدى الجماعات الإسلامية اليوم إلى الحكم .

وأنا شخصيًا لا أحبذ أن تسعى أى جماعة من الجماعات الإسلامية القائمة اليوم إلى الحكم قبل أن تستكمل تربية ذاتها على الشورى الإسلامية الحقيقية ، التى ضرب لنا الخلفاء الراشدون نماذج منها . . حتى إذا وصلوا إلى الحكم ذات يوم كانوا صورة صادقة للحكومة الإسلامية الراشدة ، لا تكرارا لصور الاستبداد التى وقعت من قبل فى حياة المسلمين .

ولكن ما قول العلمانيين فى أن يتولوا هم الحكم ـ وقد تشبعوا بالروح الديمقراطية وتربوا على احترام الآخر ، وإفساح الصدر للرأى الآخر ـ بشريطة أن يحكموا بما أنزل الله . . وسنكون نحن يومئذ أول المؤيدين ، وأول المناصرين ؟!

أم إن هذا ـ بالذات ـ هو المحظور ؟!!

من الوقائع المضحكة التى وقعت فى السجن الحربى ـ وشر البلية ما يضحك كما يقول صلى الله عليه وسلم ـ أن التحقيق كان يجرى مع أحد الإخوان ، وهو معلق من يديه ورجليه ، والسياط تهوى عليه من كل جانب ، فقال له المحقق الذى يتولى تعذيبه : « . . . وعلى ذلك فقد رحت تقرأ كتب سيد قطب ، وتقول منها للناس ؟! » فظن المسكين فى حرارة الضرب أن التهمة الموجهة إليه هى ترديد كلام سيد قطب ! فراح ينفى التهمة بشدة ! قال : « أنا لا أقول من كلام سيد قطب ! » فتوقف الرجل عن التعذيب لحظة وسأله : « من أين تقول إذن ؟! » قال : « أنا أقول من القرآن ! » عندئذ عاد الرجل يهوى بالسياط على بدنه أشد من الأول ، وقال له حانقا : « يا ابن الـ . . ! ومن أين يقول سيد قطب ؟ أليس يقول من القرآن » ؟!!

وعلم المسكين أن التهمة الحقيقية لم تكن ترديد كلام سيد قطب . . إنما كانت ترديد كلام الله !

لحساب من يُحارَب الإسلام ؟!

الحرب المحمومة التى تشن على الإسلام اليوم أوضح من أن يجادل فيها مجادل . .

حرب عالمية فى كل مكان فى الأرض . . فى البوسنة والهرسك . . فى طاجستان . . فى الهند . . فى كشمير . . فى الفلبين . . فى بورما . . فى تركستان . . فى فلسطين . . فضلا عما يجرى فى داخل العالم الإسلامى ذاته من ملاحقة للحركات الإسلامية وتشريد لأصحابها وسجن واعتقال وتعذيب . .

ولن نتعرض هنا إلا لعنصر واحد من هذه الحرب الشاملة التى تستخدم فيها كل الوسائل ، ذلك هو الهجوم العلمانى العنيف المتلاحق فى وسائل الإعلام المختلفة من صحافة و إذاعة وتلفاز وندوات ومحاضرات وتصريحات ولقاءات . .

ونستثنى من هذه الحملة الإعلامية ما كان موجها ضد « الإرهاب » فلا نتكلم عنه فى هذا المجال ، فقد يجد القائمون بالحملة ستاراً لحملتهم ، فيقولون إنهم يحاربون الإرهاب ولا يحاربون الإسلام . .

إنما نتحدث فقط عن الحملات الموجهة ضد الإسلام ذاته ، وبالذات ضد تحكيم الشريعة . . ونتساءل : لحساب مَنْ تشن تلك الحملات ؟!

* * *

حين جاء الغزو الصليبى للعالم الإسلامى كان أول همٍّ له بعد استيلائه على أى بلد من بلاد المسلمين هو تنحية الشريعة .

ولا عجب فى ذلك إذا أدركنا أنه غزو صليبى . .

ويجب أن نفرق ابتداء بين ما سمى « استعماراً » [1] ـ أى الاحتلال العسكرى لبلد من

(1) لا أدرى من الذى بدأ استخدام كلمة « الاستعمار » ترجمة لكلمة Colonisation التى تعنى الاحتلال ولكنى أرجح أنهم ذات المترجمين الأرمن واللبنانيين الذين كان الغزو الصليبى يستخدمهم فى البلاد الإسلامية ، والذين ترجموا لفظة Secularism بالعلمانية للإيهام بأن لها صلة بالعلم !

البلاد وإخضاعها للدولة الغازية ـ وبين ما جرى فى البلاد الإسلامية خاصة ، وهو شيء مختلف تماما ، وإن أريدَ إيهامنا أنه كله من نوع واحد ، وأنه كله داخل تحت عنوان « الاستعمار » وأن الهدف منه جميعا كان الاستغلال الاقتصادى للبلاد المغلوبة على أمرها ، وليس وراء ذلك هدف آخر !

كلا . . ليسا نوعاً واحداً ، وإن كان الاستغلال الاقتصادى من الأهداف الرئيسية فى كلا النوعين . .

ففى البلاد غير الإسلامية التى أغار عليها « الاستعمار » لم يتعرض الاستعمار لعقائد أهلها ولا عاداتهم . لم يتعرض للهندوكية فى الهند ، ولا البوذية فى جنوب شرق آسيا ، ولا للوثنية فى أفريقيا . .

أما فى البلاد الإسلامية فكان الأمر على خلاف ذلك . . كانت هناك حرب شرسة ضد الإسلام ، توجهت أول ما توجهت إلى تنحية الشريعة الإسلامية ، وفرض القانون الوضعى بالحديد والنار ، ثم توجهت إلى معاهد التعليم الإسلامى لإغلاقها أو قهرها على تغيير برامجها الدينية ، ثم توجهت إلى محاولة تغيير عادات الناس وتقاليدهم بشتى الوسائل التى استخدمها « الغزو الفكرى » فى مناهج التعليم ووسائل الإعلام . . وقامت مدارس التنصير بدورها فى تلك الحرب الشرسة على مبدئهم الشهير: « بطىء ولكنه أكيد المفعول» (١)

لماذا كان ذلك الفارق بين « الاستعمار » فى البلاد غير الإسلامية ، وبين « الغزو الصليبى » فى بلاد الإسلام ؟

الفارق أنه لاعداء بينهم وبين الوثنية بأشكالها المختلفة ، هندوكية أو بوذية أو إفريقية ، بينما العداء قائم بينهم وبين الإسلام : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » (٢)

والفارق أن العقائد الوثنية لا خوف منها على وجود المستعمر ، ولكن خطر الإسلام كامن فى عقيدته التى تحث المسلمين على الجهاد ، وتمنعهم من الاستكانة إلى أعداء دينهم . وأن الإسلام ليس ديناً منفصلاً عن واقع الحياة يُمارَسُ ساعة من النهار ثم تجرى الحياة بعيدة عنه بقية اليوم . . إنما هو ضارب بجذوره فى كل تفصيلات الحياة

---

(١) ستتكلم بشىء من التفصيل عن هذه الوسائل فيما يلى من الفصل .

(٢) سورة البقرة [١٢٠].

ودقائقها، فهو ما يفتأ يذكّر المسلمين فى كل لحظة، وكل عمل، وكل شعور، وكل فكر، أن هؤلاء الغزاة ليسوا منهم، ولا يمكن أن يكونوا منهم فى يوم من الأيام، إنما هم غزاة كفار يجب أن يُجْلَوْا من أرض الإسلام . .

والفارق أخيراً أن الوثنيين قد يتقبلون النصرانية لأنهم لايملكون عقيدة حقيقية يمكن أن تقف فى وجهها . أما المسلمون الذين يشعرون أن عقيدتهم أسمى وأشمل وأصح فإنهم لن يقبلوا النصرانية، وسيقفون وقفة صلدة أمام محاولات التنصير . .

هل نعجب إذن من بدئهم حملتهم ضد الإسلام بتنحية الشريعة الإسلامية ؟

إن كانوا يريدون تنصير المسلمين ـ وقد حاولوا ذلك فى مبدإ الأمر حتى يئسوا [1] ـ فهل يمكن ذلك فى وجود الشريعة التى تطبق حد الردة على المرتد الذى يبدل دينه [2] ؟

وإن كانو يريدون نشر الفاحشة ـ وقد أرادوا ذلك وفعلوه [3] ـ فهل يمكن ذلك فى وجود الشريعة التى تطبق حد الزنا ؟

وإن كانوا يريدون نشر الخمر والتعالن بها ـ وقد أرادوا ذلك وفعلوه [4] ـ فهل يمكن ذلك فى وجود الشريعة التى تطبق حد الخمر ؟

وإن كانوا يريدون إغراء المرأة بخلع حجابها، وخروجها بعد ذلك سافرة، كاسية عارية، فضلا عن تجريدها من حيائها الفطرى على الشواطىء التى تختلط فيها كتل اللحم العريان ـ وقد أرادوا ذلك وفعلوه ـ فهل يمكن أن يحدث ذلك فى وجود الشريعة التى تعاقب على هذه الأمور كلها عقوبات رادعة ؟

وإن كانوا يريدون إزالة الحاجز النفسى الذى يجعل المسلم يحس دائما بالاختلاف والتميز بينه وبين الغازى الصليبى، بحيث لا ينسجمان ولا يندمجان ولا تزول العداوة بينهما ـ وقد أرادوا ذلك وفعلوه ـ فهل يمكن ذلك إذا بقى للمسلم نظامه الخاص فى التحاكم وفى التعامل، يفىء إليه مستعليا بإيمانه على من لايدين بالدين الصحيح ؟

---

(١) سيأتى كلام الأب زويمر فى هذا الشأن .

(٢) قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة » أخرجه الشيخان .

(٣) وصل الأمر إلى فتح بيوت للدعارة الرسمية، وتنصيب الدولة « المسلمة ! » راعياً لها، وحارساً عليها !

(٤) أعطيت التصاريح الرسمية لفتح حانات الخمر، وكتب عليها « مشروبات روحية ! » ترجمةً لكلمة Spiritual بمعنى كحولية! على نفس الطريقة التى أصبح الاحتلال بها « استعمارا » و اللادينية «علمانية»!! .

من كل الجوانب إذن كان لابد للغازى الصليبى أن يبدأ عمله ـ بعد استتباب أوضاعه العسكرية ـ بتنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم . .

ولكن هذه الخطوة وحدها لم تكن لتكفى . .

فما الذى يمنع المسلمين من محاولة العودة إلى الشريعة ، بعد أن تزول عنهم وهلة الهزيمة العسكرية ، فيبدءوا الجهاد من جديد لإخراج الغازى الصليبى ، وإعادة الشريعة إلى مكانها من الحكم ، ومكانتها من القلوب ؟!

لابد من صرفهم ـ من داخل أنفسهم ـ عن تلك المحاولة الخطيرة . . التى يمكن أن تفسد كل مخطط الأعداء .

بل لا يكفى صرفهم فحسب . . فلربما يعودون !

لابد من تنفيرهم من الشريعة بحيث لا يفكرون فى العودة أبدا ، ويحمدون ربهم ـ أو يحمدون شيطانهم ـ أنهم تخلصوا من تلك الشريعة إلى غير عودة . .

وذلك الذى خطط له الغزو الصليبى عن طريق« الغزو الفكرى » بدءًا بمناهج التعليم ، ومروراً بوسائل الإعلام .

وضعت مناهج تعليمية « علمانية » بدلا من المناهج الدينية التى كانت تعلم الناس أن الإسلام هو الأصل فى حياة المسلمين ، وأنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . .

وحقيقة أن « التعليم الدينى » الذى كان قائما يومئذ لم يكن هو الصورة الصحيحة للتعليم الدينى كما ينبغى أن يكون ، ولم يكن يخرّج المسلم الحق الذى يعرف حقيقة دينه ويمارسه على وعى وبصيرة ، كما أنه كان خلوا من العلوم الكونية التى كانت تشكل جزءا أساسيا منه يوم كان المسلمون فى الأندلس وغيرها من بلاد الإسلام هم المتعلمين حقاً فى الأرض ، وهم سادة الأرض . .

صحيح ذلك . . ولكن الغزو الصليبى الذى أغلق المعاهد الدينية أو جفف منابعها أو تركها قائمة ولكن شبه مهجورة ، وحوّل مجرى التعليم بعيدا عنها كما فعل الاحتلال البريطانى فى مصر تجاه الأزهر[1] ، لم يفعل ذلك من أجل تصحيح مسار التعليم وجعله أداة مفيدة للأمة تخرجها من تخلفها وضعفها إلى القوة والتقدم . . بل فعل ذلك

---

(١) اقرأ إن شئت فصل الغزو الفكرى من كتاب « واقعنا المعاصر » .

بدافع من الحقد الصليبى ، للقضاء على الصبغة الدينية التى تميز المسلمين ، ودفع المسلمين دفعا فى تيار التغريب الذى تَتَبَهِمُ فيه شخصيتهم ويؤدى بهم إلى الضياع وإن تعلموا من العلم بعض القشور . .

وفى تلك المناهج العلمانية لم يكن هناك مجال للعلوم الشرعية ، ولكن هناك حصة دين بائسة توضع فى آخر الجدول المدرسى ، والتلاميذ يتثاءبون من رغبة النعاس وإجهاد الدراسة اليوم بطوله ، وينتظرون دق الجرس لينفلتوا من القيد ، ويخرجوا إلى الطريق . وينتدب لها من المدرسين أكبرهم سنا وأعجزهم عن النشاط والحركة وأدناهم إلى الفناء . والدرس ذاته عبارة عن نصوص تستظهر دون اهتمام بشرح معانيها وإحيائها فى القلوب لتحريك الوجدان الدينى فى نفوس التلاميذ وربط قلوبهم بالله سبحانه وتعالى برباط متين . . ولن تكون نتيجة ذلك الدرس تعلق الصغار بدينهم ، بل الأحرى تنفيرهم منه وإبعادهم عنه . .

وفى درس التاريخ الإسلامى بالذات جرعة أخرى من السم تبعد الدارسين عن الإسلام وتلوى أعناقهم إلى الغرب ثم تستعبدهم له . . فبعد دراسة البعثة المحمدية يختصر التاريخ الإسلامى إلى جانبه السياسى وحده ـ وهو الذى وقع فيه أشد الانحراف فى حياة المسلمين ـ ويطمس على الجانب العقدى ، والجانب الحضارى ، والجانب العلمى ، والجانب الاجتماعى ، وكيف فتح المسلمون البلاد لا للاستغلال الاقتصادى أو شهوة الغلبة والفتح ولكن لنشر الدعوة وإزالة الجهالة وتحويل البلاد إلى الأخوة الإيمانية والسماحة الدينية . . وكأن تاريخ المسلمين كله لم يكن إلا صراعات على الحكم وشهوة السلطان! فإذا فُرِّغَ التاريخ الإسلامى من محتواه المشرق الحى ، وركز على انحرافات ذلك التاريخ وحدها ، وُجِّه الطلاب إلى تاريخ أوربا . . فركِّز على التقدم العلمى والحضارى وعلى الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وطمس على الاستعمار وجرائمه البشعة ، وإذلال الشعوب واستلاب خيراتها ، وطمس على التحلل الخلقى والروح المادية الصلدة والفساد العقدى وتقطع روابط الأسرة والمجتمع . . فتكون نتيجة تلك الدراسة بذر بذور النفور من التاريخ الإسلامى ، وعدم التعلق بأمجاده ، وعدم الاعتزاز به ، والتوجه فى الوقت ذاته إلى الغرب والتعلق به ومحاولة اللحاق به ، أو بالأحرى اللهاث وراءه . .

وحقيقة أن واقع المسلمين فى الفترة التى جاء فيها الغزو الصليبى كانت سيئة غاية السوء فى جميع المجالات ، وأن حال أوربا الظاهر كان هو الغلبة والقوة والتقدم العلمى

والمادى . . ولكن المنهج الذى كان يمكن أن يدرس به التاريخ ـ لو أن واضعه كان مسلماً معتداً بدينهً ، ملتزماً بالحقيقة العلمية فى الوقت ذاته أمانة لله ـ هو أن يعرض الحقيقة كاملة من جانبيها ، الجانب الإسلامى والجانب الغربى ، فيعرض صفحة الإسلام المشرقة وفى داخلها خط الانحراف فى حجمه الحقيقى ، وشتان بين هذا وبين إخفاء الوجه المشرق كله وإبراز خط الانحراف وحده كأنه هو التاريخ ؛ ثم عرض الواقع الإسلامى المعاصر على حقيقته مع بيان أن السبب الأساسى فى تدهور حال المسلمين هو بعدهم عن حقيقة الإسلام ، وتحول الإسلام فى حياتهم إلى تقاليد خاوية من الروح ، وأداء آلى للشعائر التعبدية دون تطبيق للمعانى السامية للإسلام فى كل المجالات ، مع الانصراف عما أمر الإسلام به من عمارة الأرض وامتلاك أسباب القوة والحرص على العلم . . أما بالنسبة لأوربا فتعرض جملة الحقائق التاريخية التالية : أن أوربا عاشت فترة عشرة قرون كاملة فى ظلمات « القرون الوسطى المظلمة » عندها بسبب فساد دينها وطغيان كنيستها ، ثم لما احتكت بالمسلمين الذين كانوا فى الفترة ذاتها فى أوج تقدمهم وحضارتهم وتمكنهم فى الأرض بسبب تمسكهم بدينهم الحق ، بدأت أوربا تخرج من الظلام ، وترجمت كتب العلوم الإسلامية فتعلمت ، ثم تابعت تقدمها ، فسيطرت وتمكنت بينما نسى المسلمون علومهم فتأخروا ، ولكن أوربا حين ملكت القوة استخدمتها فى إذلال الشعوب الضعيفة وقهرها ونهب خيراتها ولم تستخدمها فى رفع مستوى الشعوب وترقيتها كما فعل المسلمون فى وقت قوتهم ، ولأنهم نبذوا الدين امتلأت حياتهم بالانحلال الخلقى والروح المادية الطاغية . .

ما أبعد تلك الصورة ـ التى كان يجب أن تكون محور تدريس التاريخ فى المدارس ـ عن الصورة المقلوبة التى كان يدرس بها بالفعل ، مع أن تلك الصورة هى التى تحمل أكبر قدر من « الحقائق التاريخية » والتفسير الصحيح للتاريخ ، بينما الصورة التى كان يدرس بها بالفعل لم تشمل إلا بضع حقائق منتقاة بسوء قصد لإعطاء التأثير المسموم ، كما ينقصها التفسير الصحيح لوقائع التاريخ ، الذى يجعل للوقائع معنى تربويا يصحح بناء النفوس .

بل درّس فى المدارس العلمانية ما هو أسوأ من ذلك !

درس للطلاب فى درس الجغرافيا أن بلاد العالم الإسلامى متخلفة بسبب حرارة الجو التى تدعو إلى الكسل والخمول بينما الجو البارد فى أوربا يبعث على النشاط والحركة .

ومتخلفة لأنها زراعية لا يوجد فيها فحم ولا حديد ، بينما أوربا متقدمة لوجود الصناعة فيها بسبب وجود الفحم والحديد ! ومؤدى ذلك أن التخلف لعنة أبدية مكتوبة على العالم الإسلامى ، بسبب ظروف قاهرة لا يد للإنسان فيها مهما حاول ! جو حار ، ولا فحم ولا حديد ! بينما التقدم العلمى والصناعى والحضارى نصيب أزلى مقسوم لأوربا بسبب جوها البارد ووجود الفحم والحديد فيها ! وكأنما تلك البلاد الحارة لم تكن يوما من الأيام مهد حضارة ملأت أرجاء الأرض ، ولم يكن أهلها هم الناشطين الذين يتحركون لكشف مجاهل الأرض ونشر الهدى والنور فى أرجائها ، بينما كانت أوربا بجوها البارد وفحمها وحديدها غارقة فى الظلام !

ثم . . لما كبر التلاميذ ، وصاروا طلابا فى المدارس الثانوية وفى التعليم العالى درّس لهم ما هو أسوأ من ذلك !

درس لهم أن أوربا كانت تعيش فى الظلمات بسبب سيطرة الدين على حياتها ، وأنها لم تتقدم ولم تتحضر إلا بعد أن نبذت دينها . . وأن الواقع السيىء الذى يعيشه المسلمون اليوم هو بسبب الدين الذى يتمثل فيه الجهل والخرافة ، وأنهم لن يتقدموا ويتحضروا إلا حين يفعلون كما فعلت أوربا ، فينبذون دينهم ، ويتحررون من أغلاله . .

وما أصدق المقولة الأولى ، وما أكذب الثانية !

أوربا كانت فى ظلام بسبب دينها . . نعم . ولما نبذت « ذلك الدين » تقدمت وتحضرت . . نعم

أما المسلمون ـ على عكس ذلك تماما ـ فإن وقت تمسكهم بدينهم هو وقت عزتهم ووقت قوتهم ، ووقت علمهم وحضارتهم وتقدمهم . أما وقت انتكاسهم وانحسارهم وضعفهم وتخلفهم فهو وقت عدم تمسكهم بحقيقة دينهم ، وإن تمسكوا بأوهام ليست منه فى حقيقة الأمر ، حسبوها هى الدين .

والفرق بين الحالين هو الفرق بين الدينين . . أحدهما زائف محرف ، والآخر هو الدين الحق كما أنزل من عند الله بلا تحريف . فمن تمسك بالأول ضل وتقهقر ، ومن تمسك بالآخر على حقيقته نال خير الدنيا والآخرة .

ولكن الذى درس للطلاب سواء بالإيحاء أو بالطريق المباشر لم يكن مقصودًا به وجه الحق . . إنما كان المقصود به هو التضليل ، وإبعاد المسلمين عن الإسلام من كل سبيل . .

ويجيء فى هذا الصدد كلام الأب زويمر [1] فى مؤتمر القدس التنصيرى عام١٩٣٥م، حيث كان عدد من المنصرين قد شكا من الفشل الذريع فى تنصير المسلمين على الرغم من كل الجهود المبذولة فى ذلك ، فرد عليهم زويمر مبينا أن الهدف ليس تنصير المسلمين [2] ، وإنما هو صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام ، وإن المنصرين نجحوا فى ذلك نجاحاً باهراً ، بفضل المدارس التنصيرية ، ومناهج التعليم التى وضعها المنصرون للبلاد الإسلامية !! [3]

ولم يكتف الغزو الصليبى بكل السموم التى وضعها فى مناهج التعليم ، وما كان له أن يكتفى ! فلابد من إحكام التخطيط ، وإحكام التنفيذ ، حتى لا تترك ثغرةيعود المسلمون من طريقها إلى الإسلام !

كان المطلوب إحداث نمط حياة كامل مغاير للصورة الإسلامية ، وتحويله إلى « أمر واقع » يضغط بثقله على الأعصاب والأفكار والأرواح والعقول ، فيبعدها عن الإسلام، ويصبح الإسلام إلى جانبها أشباحاً غامضة ، أو أحلاما هائمة ، غير قابلة للتطبيق فى دنيا الواقع . . بل يصبح نمط الحياة الجديد فى حس الناس هو الأصل ، ويصبح الإسلام إلى جانبه شيئاً مضاداً . . شيئا غير مرغوب فيه ، لأنه يتصادم مع الواقع الجديد ، ويفسد « رونقه » و « بهاءه » الوهميين اللذين لمعتهما وسائل الإعلام بكل وسائل التضليل . .

ولقد كان هذا أخطر ما صنعه الغزو الصليبى فى الحقيقة ، وأبرع ما نجح فيه مستغلا غفلة المسلمين عن حقيقة دينهم ، والانبهار الذى أحسوه تجاه الغرب الظافر بسبب الخواء العقدى الذى كانوا يعيشون فيه .

قامت صحف ومجلات وكتاب يهاجمون « التقاليد » وينادون بضرورة تحطيمها

---

(١) هو الدكتور صمويل زويمر من أخطر المنصرين الذين عملوا فى الساحة الإسلامية ، مات فى الخامسة والثمانين من عمره عام ١٩٥٢ م ، وكان « بروتستانتيا » ولكنه أوصى أن يدفن فى مدافن اليهود !!

(٢) كذب زويمر فى هذه . ويشهد على كذبه كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » تأليف أ. شاتلييه (تعريب محب الدين الخطيب) فقد دعا صراحة إلى وجوب تنصير العالم الإسلامى . فلما عجزوا قال زويمر إن الهدف لم يكن تنصير المسلمين ، وزعم أن هذا شرف لا يستحقونه ! وإنما الهدف صرف المسلمين عن الإسلام !

(٣) راجع نص حديثه فى كتاب الشيخ محمد محمود الصواف « المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام » طبع دار الاعتصام بالقاهرة ص ٥٨ ــ ٥٩

وتخليص المجتمع من أغلالها . . ووضعوا فى المطلوب تحطيمه حجاب المرأة ، والتزامها ببيتها ، وتحريم الخلوة بالأجنبية ، وتحريم العلاقات « الحرة ! » . . ووضعوا فى المطلوب تطبيقه سفور المرأة وهجرها لبيتها ، ووجوب الاختلاط ، ووجوب التجربة قبل الزواج ،ووجوب إباحة العرى على الشواطىء ، وعشرات أخرى من تلك «الواجبات!» . .

وخرجت المرأة من بيتها ، وخلعت حجابها وسفرت . . وأصبح هذا أمراً واقعاً . .

ووقع الاختلاط ، وقامت « الصداقات » بين الأولاد والبنات . . وأصبح هذا أمرا واقعا . .

وفشت العلاقات المحرمة بين الرجال والنساء . . وأصبح هذا أمراً واقعاً . .

وفى عالم السياسة قامت أحزاب تبعد الدين عن مجالاتها تماماً وتحرّم الخوض فيه . . وأصبح هذا أمراً واقعاً . .

وفى عالم الاقتصاد قامت بنوك ومؤسسات ربوية تتعامل بالربا جهارا . . وأصبح هذا أمرا واقعا . .

وفى عالم الفكر قامت نظريات وآراء وأفكار تسخّف الدين ، وتنظر إليه على أنه خرافة وجهل وتأخر وأساطير . . وأصبح هذا أمرا واقعا . .

ودرس لطلاب المعاهد التربوية الذين سيصبحون معلمى الأجيال التالية نظريات فرويد التى تقرر تعارض الدين مع الصحة النفسية ، وكون الدين هو سبب الاضطرابات النفسية والعصبية ، وكون الواجب رفع « الكبت » عن الغريزة الجنسية . . وأصبح هذا أمراً واقعاً . .

ودرس لطلاب الاجتماع نظريات دوركايم التى تقرر أن الدين والزواج والأسرة ليست من الفطرة ، إنما هى من نتاج « العقل الجمعى » الذى يتقلب بلا ضابط ، ويحرم اليوم ما أحله بالأمس ، ويحرم غدا ما يحله اليوم . . وأصبح هذا أمراً واقعاً . .

ودرس لطلاب العلوم نظريات دارون ، والخلق الذاتى ، والتطور الخلاق ، والطبيعة الخالقة . . لا على أنها فروض علمية ولا حتى على أنها نظريات ، بل على أنها حقائق نهائية لا ينكرها إلا جاهل . . وأصبح هذا أمراً واقعاً . .

وقام فى الجامعة « أساتذة » يقولون إن القرآن من تأليف محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن ورود القصة فيه ليس على سبيل الحقيقة إنما على سبيل « الفن ! » . . وإنه لا يجوز أن يعتبر القرآن مرجعاً تاريخياً ، وإن ورود الأسماء والوقائع فيه لا يعطيها وجوداً تاريخياً ، إنما هى أقاصيص وأساطير على عادة الأقدمين . . وأصبح هذا أمرا واقعا . .

وعشرات من تلك الأحداث ومئات . . غيرت كلها صورة « المجتمع الإسلامى » وحولته مجتمعا مختلفا تماما . . كأنه صار ـ كما قال الخديو إسماعيل ـ قطعة من أوربا . . الإسلام فيه غريب ، والمسلمون فيه غرباء . .

* * *

كان ذلك هو « الواقع » الذى أحدثه الغزو الصليبى ليبعد المسلمين عن الإسلام بالدرجة التى يستحيل عليهم ـ فى تصوره ـ أن يعودوا إليه . .

ولكنهم عادوا ! عادوا على الرغم من هذا الكيد كله ، عادوا بقدر من الله . والله غالب على أمره . وهو الذى يدبر الأمر وليس البشر، وهو الذى ينشىء الأحداث وليس العبيد . .

عادوا . . أو بدءوا طريق العودة على أقل تقدير . .

وفوجئ العلمانيون . . وذعروا كذلك مع المفاجأة ! وكان موقفهم « الطبيعى ! » ضد الصحوة الإسلامية ، وضد المطالبة بتحكيم شريعة الله . .

إن العلمانيين هم نتاج الكيد الصليبى الذى وجه ضد الإسلام منذ أكثر من قرن من الزمان[1] . .

وقد لا يدركون هم ذلك ! قد لا يكونون على وعى بمقدار ما أُحْدِث فى نفوسهم من مسخ وتشويه . . فقد ركّبوا فى مصانع الغزو الصليبى بحيث يرون الإسلام عدواً لهم لابد من محاربته . . لذلك فقد يعتقدون أنهم فى مواقفهم ضد الإسلام ، وضد تحكيم الشريعة ، منطلقون من ذوات أنفسهم ، وبدوافعهم الخاصة . .

---

(١) الأولى أن نقول « الكيد الصليبى الصهيونى » فقد كان اليهود شركاء فى التخطيط والتنفيذ ، وكانوا يعملون طيلة الوقت لحسابهم الخاص ، فقد كانوا يخططون لإنشاء إسرائيل ، وكانوا يعلمون أن العقبة أمامهم هى الإسلام ، فكل جهد لإبعاد المسلمين عن الإسلام هو فى صالحهم ، ومن أجل ذلك يشاركون فيه .

ولكن . . ألا يستوقفهم ذلك التوافق العجيب بين مواقفهم ومواقف الغرب تجاه الإسلام ؟!

الغرب هو الذى نحّى الشريعة الإسلامية من البلاد التى وطئتها أقدامه فى أثناء الغزو الصليبى ، والغرب هو الذى جند طاقته كلها لمنع العودة إلى تطبيقها مرة أخرى فى بلاد الإسلام . .

والعلمانيون ؟ ما موقفهم . . ؟

أليسوا يعارضون تحكيم الشريعة فى بلاد الإسلام ؟! ويقيمون الندوات والمؤتمرات ليؤكدوا معارضتهم لذلك الأمر ؟!

والغرب يقول إن « الإسلام السياسى » هو الخطر الجديد الذى يهدد العالم . . والذى يجب أن تجند له قوات الغرب ، بل قوات العالم كله !

والعلمانيون ؟ ما موقفهم . . ؟

أليسوا يقولون إن الإسلام يجب أن يبعد عن السياسة ، وإن مزجه بالسياسة ، أو انطلاق السياسة من منطلقه خطر يهدد العالم ؟!

والغرب وقف بشدة ضد وصول الإسلاميين إلى الحكم فى الجزائر ، ونسى «ديمقراطيته » التى تقضى بأن ما تجمع عليه أغلبية الأمة يجب أن يكون هو دستورها النافذ وقانونها المطبق ، وقال : إن ذلك يصح مع أهل الأرض جميعا إلا المسلمين !

والعلمانيون . . ما موقفهم . . ؟

أليسوا قد وقفوا ضد الإسلاميين فى الجزائر ، وقالوا إن « العالم الحر » يجب أن يتدخل ليحول دون هذا الخطر المخيف ؟!

والغرب أطلق على الحركات الإسلامية لفظ « الأصولية » Fundamentalism وهى عندهم كلمة ذم لا يوجد لديهم أكثر منها ذما لصاحب فكر أو عقيدة . فهى عندهم علم على فئة من النصارى حرفية فى تفكيرها ، ضيقة الأفق ، متعصبة ، لامرونة عندها ولا قدرة على التكيف بما يجدّ فى الحياة من أمور . . وقد أطلقوا هذه الصفات كلها على الحركات الإسلامية يوم أطلقوا عليها هذا الوصف Fundamentalists ، ودلالتها عند الرجل الأوربى واضحة غاية الوضوح . .

والعلمانيون . . ما موقفهم . . ؟

ألم يتلقفوا تلك الصفة فى الحال ويصفوا بها الحركات الإسلامية ، حتى لم يعد يجرى على لسانهم عندما يتكلمون عن الحركات الإسلامية أو الاتجاه الإسلامى إلا لفظ «الأصولية » ؟!

والغرب يتحدث ليل نهار عن « الإرهاب الإسلامى» ويصوره على أنه الخطر الكاسح الذى سيقوض أمن العالم كله ، والذى يجب أن يكافح ، وأن يجتث من جذوره ، بينما لا يتحدث أبداً عن « الإرهاب النصرانى » ـ وقد تمثل فى أبشع صوره فى البوسنة والهرسك ـ ولا « الإرهاب اليهودى » وهو يتمثل يوميا فى قتل أصحاب البلاد الأصليين وتشريدهم وتعذيبهم فى السجون ومنعهم من حقوقهم الطبيعية والاستيلاء على أرضهم وديارهم وطردهم منها ، ولا « الإرهاب الهندى » الذى يمارسه عبّاد البقر على المسلمين فى الهند، ويتمثل فى حرق المسلمين أحياء فى قراهم، وتهديم مساجدهم وتعقيمهم إجباريا لكى لايتكاثر نسلهم، ولا «الإرهاب البوذى» الذى يفعل بالمسلمين ما يفعل فى بورما ، ولا « الإرهاب الشيوعى » الذى قتل مائة ألف من المسلمين فى طاجستان وطرد الباقين من بلادهم . . ولا غيرها ولا غيرها من صنوف الإرهاب ، كأن الدنيا كلها مستقيمة ملتزمة والمسلمون وحدهم هم الذين يمارسون الإرهاب .

والعلمانيون . . ما موقفهم . . ؟

أليسوا يرددون ذات النغمة فلا يكفون عن الحديث عن الإرهاب الإسلامى ، بينما يصمتون الصمت المريب عن كل ألوان الإرهاب الواقعة فى الأرض ، والتى يقع أكثرها على المسلمين ؟!

ألا يستوقفهم ذلك التوافق العجيب بين مواقفهم ومواقف الغرب تجاه الإسلام ؟!

وكيف يتأتى أن يتطابق موقف « المسلم » من دينه وقومه مع موقف أعداء دينه وأعداء قومه ؟!

أليس هذا عجيبا أيها العلمانيون ؟!

ألا يوقظكم ذلك إلى مدى تغلغل « الغزو الفكرى » فى نفوسكم بحيث تطابقت أفكاركم ومواقفكم مع أفكار أعدائكم ومواقفهم . . ؟

بل أنتم لا تحسون أنهم أعداؤكم . . بل تعتبرونهم أصدقاءكم ورفقاءكم . .

فما قولكم فى قوله تعالى ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾؟ [1]

وقوله تعالى ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ [2].

وقوله ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ [1].

لقد آن للعلمانيين أن يكتشفوا حقيقة موقفهم . . وأن يسألوا أنفسهم : لحساب من يحاربون الإسلام ؟!

---

(١) سورة البقرة [١٢٠] . (٢) سورة البقرة [٢١٧] .

(٣) سورة المائدة [٥١] .

والمستقبل .. لمن ؟!

أثبت موقف الغرب ـ وموقف العلمانيين ـ من أحداث الجزائر ، أن عداءهم للإسلام أشد بكثير من ولائهم للديمقراطية ، وإيمانهم بمبادئها .

ونحن نؤمن من زمن بعيد أن الغرب لا أخلاق له ، وأن كل تظاهره بالقيم والمبادئ إنما هو رياء ، وتنفج بالباطل ، أو على أحسن تقدير وَهْـمٌ يعيشونه فى خيالهم ، ليستكملوا فى داخل أنفسهم إحساسهم باستحقاقهم السيادة على الأرض ، لا بالحديد والنار فقط ، ولكن بالقيم والمبادئ أيضا ، فيما يسمونه « الحضارة المسيحية !! » . .

نؤمن بذلك منذ أمد بعيد . ولكن العلمانيين فى بلادنا أصحاب دعوى عريضة ـ أو وَهْم كبير ـ أننا نقول هذا الكلام تعصبا منا ضد الغرب ، وافتئاتا على حضارته ، وعلى قيمه ومبادئه . . التى يكفى منها إيمانه بالديمقراطية !

ثم جاءت أحداث الجزائر وتبدى لكل ذى عينين مدى إيمان الغرب بالديمقراطية . .

ثم جاء ما هو أسوأ . .

جاءت أحداث البوسنة والهرسك ، وتهرأت بشكل فاضح كل دعاوى القيم والمبادئ ، وسقط القناع . . وبدا العداء للإسلام فى أقبح صورة يمكن أن تخطر على ذهن بشر . . وبدت المؤامرة العالمية ضد الإسلام والمسلمين مكشوفة بلا قناع .

والعلمانيون سادرون فى وهمهم يتحدثون عن الديمقراطية ، وعن احترام « الآخر » ، ويحاكمون الإسلام إلى تلك المبادئ الزائفة التى لا رصيد لها من الواقع . .

ونترك العلمانيين ومواقفهم التى لا تستند إلى شىء من الحق . ونقول للدعاة الإسلاميين أن يتمثلوا بما أنزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى موقف مشابه :

﴿ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ﴾ (١) .

نترك العلمانيين ومواقفهم ونلقى نظرة إلى المستقبل .

---

(١) سورة النساء [٦٣] .

على أى شيء تستند هذه « الحضارة » ؟

إنها ـ بلا شك ـ تستند إلى قوة مادية ضخمة، لم تتوفر بهذه الصورة من قبل فى التاريخ.

وهذه القوة المادية تشمل فى أطوائها عبقرية تنظيمية هائلة ، وجلدا على العمل ومثابرة ، وجدية فى تناول الأمور ، وتصميماً على الوصول إلى غايات مرسومة . . وتربية دقيقة دءوبة على هذه الخصال .

وكل هذه من أدوات التمكين فى الأرض التى قال الله فى كتابه العزيز إنه يمكّن أصحابها لفترة من الوقت :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون﴾ (١)

ولكنه ـ بغير قيم حقيقية ـ تمكين مؤقت ينتهى إلى البوار . .

و« القيم الحقيقية » ليست شيئاً هلامياً يتشكل بحسب الأهواء ، فإن السنن الربانية لا تتعلق بالأهواء . ولو كان البشر هم الذين يدبرون ، وهم الذين يكتبون الأقدار ، لكان لأهوائهم ثقل فى الميزان . أما وهم لا ينشئون ولا يدبرون ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذى بيده ملكوت كل شيء ، وهو الفعال لما يريد ، فإن المعايير التى حددها الله سبحانه هى التى تجرى بمقتضاها السنن الربانية التى تقرر مصاير الناس فى الأرض . .

و« القيم الحقيقية » المعتبرة فى ميزان الله ، والتى تجرى بها السنن الربانية، هى الإيمان بالله الحق، والإيمان بالدين الحق ، والعمل الحقيقى بمقتضى المنهج الربانى . .

وأوربا قد « نسيت » ذلك كله منذ أمد بعيد . .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين ﴾ (٢)

فالتمكين الذى عليه الغرب اليوم يجرى بمقتضى السنن الربانية . والبوار الذى ينتظر الغرب ـ ما لم يغيروا ما بأنفسهم ـ يجرى كذلك بمقتضى السنن الربانية :

---

(١) سورة هود [١٥]　　(٢) سورة الأنعام [٤٤ ـ ٤٥]

﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم﴾ (١)

﴿ . . فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ (٢)

والذين يستبعدون انهيار « الحضارة الغربية » ، ويوسوس لهم الشيطان أن الله لا يمكن أن يدمر عليهم ، وهم يملكون هذا القدر الهائل من أدوات التمكين ، نحيلهم إلى أكبر انهيار فى التاريخ ، لأكبر قوة طاغية فى التاريخ ، وهى قوة الشيوعية متمثلة فى «الاتحاد السوفييتى » الذى انهار كأنما فى لحظات . .

والغرب دوره فى الطريق . .

لن تمنعه قوته المادية ولا الحربية ولا السياسية عن مصيره المقدر فى سنة الله :

﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٣)

وحين تنهار هذه « الحضارة » الجاهلية فما البديل ؟

البديل هو الحضارة الإسلامية . .

والإسلام ـ وحده ـ هو الذى يملك أن يُخرج البشرية من ظلماتها الحالية إلى النور . .

ليس البديل مزيدا من القوة المادية ، ولا القوة العلمية ، ولا القوة الحربية ، ولا القوة السياسية ، وإن كان هذا كله من الأدوات اللازمة للتمكين فى الأرض . ولكنه ـ وحده ـ لن يحل شيئا من مشاكل البشرية الحالية !

بل إنه إذا وجد ـ وحده ـ فسيؤدى إلى مزيد من الصراع ، دون حل جذرى للفساد القائم فى الأرض . والمتوقع أن يحدث هذا الصراع فى الغد القريب بين أمريكا التى توشك على الانهيار ـ رغم مظهرها الفاره ـ وبين ألمانيا ، أو بينها وبين ألمانيا وفرنسا المتحالفتين ضدها ، أو بينها وبين الكتلة الأوربية المحتشدة فى السوق الأوربية المشتركة أو بينها وبين اليابان ، أو بينها وبين الصين . . وشىء من ذلك كله محتمل فى المستقبل القريب ، وحين يحدث فلن يزيد الناس إلا خبالا ، وإيغالا فى الانحراف . . الغالب والمغلوب سواء !

---

(١) سورة الأنعام [١١٥]

(٢) سورة فاطر [٤٣]

(٣) سورة يونس [٢٤]

البديل المطلوب هو « القيم » المفقودة فى عالم اليوم ، والتى يؤدى فقدانها إلى الأحوال السيئة التى تسود عالم اليوم .

الظلم السياسى الذى يسود عالم اليوم مبعثه وجود القوة فى يد قوم قالوا منذ البدء إن الله لاعلاقة له بواقع الحياة الدنيا ، وإن « الإله » المتصرف فى واقع الأرض هو الإنسان . وحين رفض ذلك الإنسان أن يكون عبداً لله فى شئون الدنيا كما هو فى شئون الآخرة أصبح عبداً لهواه ، وعبداً لشهواته : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ [1]، فاستبد وطغى ﴿ كلا ! إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى﴾ [2] ، وأصبح القانون الذى يحكم الأرض هو قانون الغاب: القوى يأكل الضعيف. وشكلت الوحوش « العظمى » هيئات دولية تضفى بها الشرعية على جرائمها ، وتمنع توقيع الجزاءات على ما ترتكبه من العدوان ، وفى الوقت ذاته تلهّى بها الضعفاء المأكولين ، فيظنون ـ وهم بين مخالب الوحش ـ أنهم يشاركون فى صنع القرار !!

والظلم الاقتصادى الذى يسود عالم اليوم مبعثه الرأسمالية الربوية التى رفضت أمر الله ابتداء بتحريم الربا ، فأنشأت نظاما يأكل فيه القوى الضعيف فى عالم الاقتصاد كما يأكله فى عالم السياسة. واستبد الأقوياء اقتصاديا بالضعفاء فامتصوا جهدهم ودماءهم، وحولوهم خدماً لهم وتبعا ، يسخّرونهم « لمصالحهم » ويمنون عليهم أن تركوهم يحيون إلى جانبهم . . وإنها لحياة الهُون .

والفساد الخلقى الذى يسود عالم اليوم مبعثه إنكار حق الله فى وضع « الحدود » التى تضبط تصرفات البشر ، وإعطاء هذا الحق للبشر بدعوى أنهم أدرى بمصالحهم من خالقهم سبحانه! ومبعثه كذلك أن الآخرة قد امّحت من حسهم فصارت الحياة الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم، فانفلتت الشهوات من معقلها ، لأنه لا يعقلها إلا الإيمان بالله واليوم الآخر.

وكذلك كل ألوان الفساد الموجود فى الأرض من التمييز العنصرى ، إلى الحروب إلى الخمر إلى المخدرات إلى الجريمة إلى الزيغ العقدى إلى الزيغ الفكرى إلى الزيغ « الفنى ! » إلى ألوان الجنون المختلفة من جنون الكرة إلى جنون الجنس إلى جنون التليفزيون إلى جنون الفيديو إلى جنون « المودة » إلى جنون السرعة إلى جنون العظمة الذى يحتل رءوس الطغاة وكبار المجرمين . .

---

(١) سورة الفرقان [٤٣]

(٢) سورة العلق [٦ ـ ٧]

كله يرجع إلى سبب رئيسي واحد ، هو استكبار الإنسان المعاصر عن عبادة الله واتخاذه إلهه هواه . .

وليس هذا تبسيطا للأمور كما يحلو لبعضهم أن يفكر . . إنما هي الحقيقة التي أكدها كلام الله في الكتاب المنزل ، وأكدتها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

والمنهج المقابل لذلك الفساد كله هو الإسلام .

وليس الإسلام ـ كما قلنا دائما ـ كلمة تنطق باللسان فحسب ، وليس وجدانا مستسرا في الضمير فحسب . بل هو منهج حياة كامل، يشمل كل جوانب الحياة العقدية والأخلاقية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والقولية والعملية ، ويضبط كل ذلك بالضوابط الربانية ، فيقوم الناس بالقسط . .

الإسلام هو المنهج الذي يصلح الفساد الذي أنشأه البعد عن الله . .

هو الدين الذي يغذي جوعة الروح . فللروح جوعة لا تستقر إلا بالإيمان بالله :

﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١)

ويبارك نشاط الجسد ونشاط العقل مادام منضبطين بالضوابط الربانية .

ويوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح . ومطالب الدنيا ومطالب الآخرة .

الدين الذي يحث على « العلم » وعلى عمارة الأرض ، ويجعل ذلك جزءا من عبادة الله . .

الدين الذي يمحو فوارق الجنس وفوارق اللغة وفوارق اللون، ويتعامل مع الإنسان من حيث هو إنسان .

الدين الذي يكرّم الإنسان ، ويضعه في أحسن حالاته حين يعبد الله وحده فيتحرر من عبادة كل الآلهة المدعاة .

الدين الذي ينشر العدل في الأرض لأنه يحرم الظلم ويأباه ، ويحض المؤمنين على الجهاد لإزالة الظلم من الأرض وإقامة القسط بصرف النظر عن اختلاف الجنس أو اللغة أو اللون . . أو الدين . .

يكفي أن نقول : هو المنهج الرباني ، وما عداه هو المناهج الجاهلية .

* * *

---

(١) سورة الروم [٣٠].

ولكن المنهج الربانى لا يعمل وحده . . إنما يعمل من خلال البشر الذين يؤمنون به .

كما أن البشرية لن تتعلمه ، ولن تحبه وتؤمن به بمجرد أن تقول لها : هذا هو المنهج الربانى ، وهو خير من مناهج الجاهلية !

إنما تؤمن به وتحبه حين تراه مطبقا فى واقع يشهده الناس بالفعل ، ويرون ما فيه من « اعتدالات » واستقامات فى مقابل انحرافات الجاهلية واعوجاجاتها . .

فمن يقوم بذلك اليوم . . فينقذ نفسه ، وينقذ البشرية ؟!

من إلا المسلمون ؟

والمسلمون كما قلنا بدءوا يعودون إلى دينهم الذى كادت تنقطع صلتهم به تحت ضغط الغزو الصليبى والغزو الفكرى . .

ولكن المشوار ما زال طويلا أمامهم لكى يحققوا الصورة الحقيقية للإسلام . . بمقدار البعد الذى كانوا قد بعدوه عن حقيقة الإسلام .

ولن يتوقع أحد ـ ولا يحدث أبدا ـ أن تكون الأمة كلها ، بكل فرد فيها على المستوى المطلوب . فإن مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم ذاته لم يكن كله على المستوى ولم يكن كله أبا بكر وعمر رضى الله عنهما . . ولكن كانت فيه مع ذلك قاعدة صلبة من المؤمنين ذوى المستوى الرفيع الفائق ، هم الذين ربَّوا الأمة عن طريق القدوة ، وهم الذين قام عليهم البناء .

وهذه القاعدة هى المطلب العاجل للدعوة ، ولا نستطيع أن نقول بعد إنها تكونت على المنهج المطلوب .

ولننظر فى بعض الصفات التى استحقت بها القاعدة الأولى النصر من عند الله ، كما وردت فى سورة الأنفال :

﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم . يا أيها النبى حسبك الله ، ومن اتبعك من المؤمنين . يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال . . . ﴾[1]

فتلك صفات أربع ، تحققت فى القاعدة التى بناها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحقت بها النصر من عند الله : الإيمان ، وناهيك بذلك الإيمان الفذ . وتآلف القلوب . والتجرد لله . والاستعداد لخوض القتال حين تدعو الدواعى إليه . .

(١) سورة الأنفال [٦٢ ـ ٦٥] .

فإلى أى حد حققنا تلك الصفات فى العمل الإسلامى ، فضلا عن صفات أخرى وردت فى سور أخرى من كتاب الله [١]، وكانت كلها من المؤهلات التى استحقت بها الجماعة الأولى النصر من عند الله ، والتمكين فى الأرض حسب وعده تعالى :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾ [٢]

المشوار طويل . . ونحن لا نستبطئ المسيرة ، ولا نستعجل الوصول ، لأننا نعلم أن عقبات كثيرة كثيرة تقف فى الطريق . . وليس كيد الأعداء هو أكبر العقبات كما يجرى على ألسنة كثير من الدعاة أنفسهم ، إنما الغربة التى حاقت بالإسلام هى العقبة الأولى والكبرى ، لأنها تحوجك أن تعرّف الناس بالإسلام من جديد ، كأنه بعد جديد ! وتحوجك أن تقنع الناس أن ما عليه أكثرهم - إلا من رحم ربك - ليس هو حقيقة الإسلام ، وأن ألوانا كثيرة من الشرك يقع الناس فيها وهم لا يشعرون ، سواء شرك الاعتقاد أو شرك العبادة أو شرك الاتباع . . وما لم يقتنع الناس فلن يغيروا ما هم عليه ، ولن يغير الله لهم حتى يغيّروا ما بأنفسهم :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [٣]

فإذا أضفنا إلى ذلك كيد الأعداء بكل أنواعه ، سواء جهود العلمانيين فى مقاومة التيار الإسلامى وتشويه صورته وتنفير الناس منه ، أو ملاحقة الحركات الإسلامية داخل العالم الإسلامى بالسجن والتشريد والتعذيب والقتل ، أو الكيد العالمى ، الصليبى الصهيونى الوثنى ضد الإسلام والمسلمين ، فقد زادت الشقة بعدا وزادت المشقة على الدعاة . .

ومع ذلك كله فالمستقبل للإسلام . .

المستقبل للإسلام لأن هذه إرادة الله ، والله هو الذى يقرر ، وهو الذى يقدّر ، وهو الذى يقول للشيء كن فيكون :

﴿ سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾[٤]

لقد غفا المسلمون قرنين أو ثلاثة . . واستغل الأعداء هذه الغفوة الطويلة فجاسوا خلال الديار ، ومزقوا العالم الإسلامى شر ممزق ، ودفعوه إلى التيه ، وإلى الضياع . .

ولو كان فى قدر الله أن ينتهى الإسلام من الأرض فقد كانت الفرصة مواتية للأعداء ، وهم فى أوج قوتهم ، والمسلمون فى حضيض ضعفهم .

---

(١) راجع بصفة خاصة السور الأربع الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة .

(٢) سورة النور [٥٥] . (٣) سورة الرعد [١١] . (٤) سورة مريم [٣٥] .

ولكن الله البرّ الرحيم لم يشأ ذلك ، وإنما بعث للناس من يجدد لهم أمر دينهم كما وعد سبحانه ، فكانت تلك الصحوة المباركة التى بدأت توقظ الناس .

وفى الوقت ذاته بدأ الغرب طريقه إلى الانهيار ، حسب السنة الربانية التى لا تتبدل ولا تتحول . .

بدأ ينهار لأن حضارته غير الإنسانية قد فقدت مبررات وجودها فضلا عن استمرارها .

« الحضارة » التى ترتكب كل هذه الخسة الجماعية فى البوسنة والهرسك دون أن يهتز ضميرها بخالجة من حياء . . الحضارة التى لا يتحرك ضميرها لردع أى معتد يعتدى على المسلمين ، بل تشجعه إما بالسكوت على جرائمه وإما بإمداده سرا وعلانية بالمال والسلاح ، فى الوقت الذى يفور غضبها ويحتدم لا نقول إذا اعتدى المسلمون ، بل إذا تمكنوا من رد العدوان ! . . الحضارة التى تبيح الفاحشة حتى تصبح أصلا من أصول الحياة ، ثم تبيح الفاحشة الشاذة وتمنحها « الشرعية ! » . . ثم تسكت على زنا المحارم، أقذر ما يمكن أن يرتكبه بشر . الحضارة التى تبيح التهجم على كل المقدسات حتى ذات الله سبحانه ، فضلا عن رسله ورسالاته وكتبه ودينه بحجة «حرية الفكر » ! الحضارة التى تُعبِّد الإنسان لشهواته ، وتعبّده للمادة ، وتعبدّه للآلة ، وترفض فى الوقت ذاته أن تعبّده لإلهه ، بحجة « حرية العبادة ! » أو « حرية الضميرا » . . الحضارة التى تجعل بياض البشرة « قيمة » من القيم ، فى الوقت الذى لا تعتبر بياض القلوب والمشاعر أمراً له وزن فى حياة الناس . .

هذه الحضارة لا تملك مؤهلات الوجود فضلا عن الاستمرار ، ولو ملكت كل أسلحة الدمار ، وكل أسلحة العلم ، وكل فنون التقدم المادى . . فكل هذه لا تعيش بغير القيم الربانية إلا ريثما يحين قدرها المقدر عند الله .

﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ، وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾ (١)

* * *

نعم . . ولكن . .

هل الحركات الإسلامية القائمة فى الأرض اليوم مؤهلة لأن تقوم برسالتها العظمى تجاه نفسها وتجاه البشرية ؟

هل تمكنت من تربية القاعدة المطلوبة على المستوى المطلوب ؟

---

(١) سورة الكهف [٥٩] .

هل تآلفت قلوبها واجتمعت كلمتها ؟

هل تجردت لله حتى نسيت ذاتها ؟

هل اكتسبت من البصيرة السياسية والحركية ما يمكنها من السير فى الطريق الوعر الذى يحيط به الأعداء من كل جانب، متربصين كالوحوش الكاسرة التى تنتظر الفريسة؟

هل اتضحت لها أهدافها ، ورتبت أولوياتها ، وعرفت حدود طاقتها ، فتحركت فى حدودها ؟

أم ما زال ينقصها الكثير حتى تصبح على المستوى المطلوب ؟

وإذا بقيت على فرقتها وشتاتها ونقصٍ فى تربيتها وغبشٍ فى رؤيتها . . إلا من رحم ربك . . فهل تصلح أن تكون هى البديل الذى ينقذ البشرية من جاهليتها المعاصرة؟

لا نقول نعم ، ولا نقول لا . . فذلك غيب موكول إلى الله . .

إنما نتحدث هنا عن السنن الربانية ، وعن وعد الله ووعيده ، فهذه هى « الثوابت » التى تحكم « المتغيرات » .

نقول إن البشر لا يعجزون الله . . ﴿ إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ (١)

فأما الغرب ـ بكل قوته المادية ـ فلن يعجز الله ، لأن الله أكبر . . أكبر من كل كيدهم ، ومن كل قوتهم .

وأما المسلمون ـ بكل سلبياتهم ـ فلن يعجزوا الله ، لأن القدرة قدرته جل وعلا ، والقوة قوته ، والأسباب أسبابه ، وهو الذى قال سبحانه : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (٢)

وهو الذى وعد على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بالجولة الممكّنة للإسلام بعد أن تقع المعركة الكبرى بين المسلمين وبين اليهود :

قال عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر : يا مسلم يا عبد الله ! هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله . . . » (٣)

---

(١) سورة الطلاق [٣] .   (٢) سورة محمد [٣٨] .

(٣) أخرجه مسلم .

وإرهاصات المعركة على الأبواب ، ويجيء بعدها النصر والتمكين لدين الله .

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ﴾ (١)

والذين يحاربون الله ورسوله خير لهم أن يكفوا عن هذه الحرب لو كانوا عقلاء ، فهى حرب خاسرة فى النهاية مهما كسبت من جولات فى مبدأ الأمر ، فإنما يملى الله لهم ليزدادوا إثما ، وليمحص الله الذين آمنوا :

﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم . إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾ (٢)

﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين ﴾(٣)

ولقد مر وقت على هذه الأمة كان الإسلاميون فيه يَسْبَحُون ضد التيار ، لأن تيار الغزو الفكرى كان هو الكاسح الذى يجرف الناس أمامه بعد أن أصبحوا غثاء كغثاء السيل . .

واليوم يحس العلمانيون أنهم هم الذين يسبحون ضد التيار ! وأن التيار الجارف ، تيار الشباب ، متجه إلى الإسلام . . فيحاولون بكل جهدهم أن يغيروا الاتجاه ، ليعيدوه إلى الوضع الذى نشئوا وتربوا فيه ، وركّبوا فى مصانع الغزو الصليبى ليستريحوا إليه ويجدوا أنفسهم فيه . . ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ﴾ (٤)

---

(١) سورة الصف [٩] .

(٢) سورة آل عمران [١١٨] .

(٣) سورة آل عمران [١٤١] .

(٤) سورة النساء [٦٦] .

الفهـــرس

كتب للمؤلف

دراسات فى النفس الإنسانية
التطور والثبات فى حياة البشرية
منهج التربية الإسلامية (١ ـ ٢)
منهج الفن الإسلامى
جاهلية القرن العشرين
الإنسان بين المادية والإسلام
دراسات قرآنية
هل نحن مسلمون
شبهات حول الإسلام
فى النفس والمجتمع
قبسات من الرسول
معركة التقاليد
مذاهب فكرية معاصرة
مفاهيم ينبغى أن تصحح
كيف نكتب التاريخ الإسلامى
لا إله إلا الله عقيدة وشريعة
واقعنا المعاصر
حول التفسير الإسلامى للتاريخ
الجهاد الأفغانى ودلالاته
دروس تربوية من القرآن الكريم
رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر
حول تطبيق الشريعة
العلمانيون والإسلام
دروس من محنة البوسنة والهرسك

كتب تالية :

المستشرقون والإسلام

رقم الإيداع: ٩٤/٢٨٤١
I.S.B.N: 977-09-0203-9

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس: ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

محمد قطب

دراسات فى النفس الإنسانية
التطور والثبات فى حياة البشرية
منهج التربية الإسلامية (١ ـ ٢)
منهج الفن الإسلامى
جاهلية القرن العشرين
الإنسان بين المادية والإسلام
دراسات قرآنية
هل نحن مسلمون
شبهات حول الإسلام
فى النفس والمجتمع
قبسات من الرسول
معركة التقاليد
مذاهب فكرية معاصرة
مفاهيم ينبغى أن تصحح
كيف نكتب التاريخ الإسلامى
لا إله إلا الله عقيدة وشريعة
العلمانيون والإسلام
... ة البوسنة والهرسك

هذه الطبعة للتداول خارج المملكة العربية السعودية ودول الخليج